
دكتور حسين فوزي
سندباد إلى العالم الجديد
دار المعارف

دكتور حسين فوزى

سندباد إلى العالم الجديد



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

باريس - نيويورك فى ست ساعات

« أعترف بأنى فى أمريكا رأيت أكثر من أمريكا .. كنت أبحث عن صورة الديمقراطية ذاتها ، بميولها ، وطبيعتها ، وتحيزاتها وانفعالاتها ، حتى نعرف ما نخشاه من تقدمها ، وما نرجوه » .

الكونت ألكسيس ده توكفيل ١٨٣٣ م

فى ٢٩ أكتوبر ١٩٧٤ غادرت باريس بالطائرة « الجامبو » (بوينج ٧٤٧) إلى نيويورك فبلغتها فى ست ساعات . وفى ٢٥ نوفمبر طرت فى الساعة الثامنة مساءً من مطار نيويورك الكبير (جون كنيدى) فوصلت إلى باريس فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، بحساب ساعتى دون تغيير توقيتها ، وبما أن الشروق فى باريس يسبق الشروق فى نيويورك بست ساعات ، فقد ضبطت ساعتى على الساعة الثامنة صباحاً فى باريس ، أى بعد ست ساعات من مغادرة نيويورك .

وفى اليوم التالى من الوصول إلى باريس ، استخرجت من بين أوراقى الكثيرة وريقة عليها هذا العنوان « فندق كيربورن بارك » ، رقم ١٢٦٠ شمالا ، شارع « ديربورن باركوى » . امتحنت ذاكرتى لأعرف المدينة التى نزلت بها فى هذا الفندق ، فلم تسعفنى سوى كلمة « شيكاجو » . وبجانبها تاريخ مغادرتى للمدينة الأمريكية العظمى .

أذكر هذه التفاصيل لسببين :

الأول أن هذه ليست المرة الأولى أعبر فيها عدداً ملحوظاً من خطوط

الطول أو العرض، وذات مرة عبرت خطوط العرض من الإسكندرية حتى خط ١٠ درجات جنوبى خط الاستواء. ومن روما حتى مونتيفيديو عاصمة الأورجواى حتى خط ٣٥ درجة جنوبى خط الاستواء.

وأن سفرى لأول مرة من القاهرة إلى باريس سنة ١٩٢٥ استغرق أكثر من ستة أيام على حين أن الوصول إليها اليوم يتم فى أقل من ست ساعات، وبعد الحرب العالمية الثانية توًّا، مكثت بالطائرة نحو ثلاثين ساعة لأبلغ لوندرة من القاهرة، وأكثر من ثلاثين ساعة (١٩٥٤) للوصول من روما إلى مونتيفيديو.

لنتأمل فى تواضع ما حققه الإنسان فى أسفاره حول الكرة فى أقل من نصف قرن، بل ما توصل إليه علماء ورواد الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية من السفر إلى القمر، وارتياد سطحه وفحص تربته، ووشيكاً يتم الاتصال بين الكواكب، وواحدة من المركبات ذاتية الحركة عبرت حتى كتابة هذه السطور (٢٧ نوفمبر ١٩٧٤) إلى المريخ، فى طريقها إلى المشترى. وتصور أن سرعة إنتقال الإنسان حتى بعد عصر نابليون حددتها سرعة الجياد، هذا والحمام الزاجل أسرع وسيلة لنقل الرسائل، ومنذ أربعة قرون وصل كولمبوس بعد أشهر من مغادرته شبه جزيرة إيبريا إلى بعض جزر الهند الغربية فى البحر الكاريبى، فحسب أنه بلغ شرقى آسيا.

والسبب الثانى لذكر هذه التفاصيل هو إيضاح أننى تركت لأوراق الفنادق وجدول انتقالى بالطائرات وقائمة مواعيد محاضراتى، تحديد خط رحلاتى من شرقى الولايات المتحدة (نيويورك) إلى أقصى غربيها (سان فرانسسكو)، زائراً أو محاضراً أو متحدثاً بجامعات نيويورك، وهارفارد

(قرية كمبردج ضاحية بوسطن) ، ومدينتى واشنطن وشيكاجو (ولم أزر جامعتيها ، مكتفياً بارتياد المعهد الإسميثونيان فى عاصمة الولايات المتحدة ، كانت إقامتى بكل من هذه المدن لا تتعدى ثلاثة أيام ، فيما عدا بوسطن التى نزلت بها مرتين قبل سفرى إلى أقصى الغرب .

أما انطباعاتى ، وقراءاتى ، ومشاهداتى فقد اعتمدت فى كتابتها (بباريس) على الذاكرة وحدها ، لكثرة انشغالى بالمحاضرات واللقاءات والمشاهدات العلمية والفنية والتاريخية ، هذا إلى أننى فى رحلاتى غير حريص دائماً على تسجيل مذكرات ، أو ملاحظات . ولعلى أصدر فى هذا عن مذهب ، فنى سليم ، وهو أن مالا تحفظه الذاكرة لا قيمة له ، وأن ما يترك فى النفس أثره ، فتحرص الذاكرة عليه ، قد يؤتى ثماره ، إن ريض القلم .

والولايات المتحدة الأمريكية ، مشكل إنسانى واجتماعى ، لا أحسبنى توصلت إلى تحليله ، مع أن الموضوع الذى أرجو التوفيق فى كتابته هو معالجة هذا المشكل .

ما من شك فى أننا حيال شعب عظيم حقًّا ، منفسح الرؤية ، جدير بمركز أمته وحكومته بين شعوب العالم وحكوماتها ، شعب هائل فى إنجازاته المادية والأدبية والفنية والفكرية ، ولست رجل سياسة لأحكم على نجاح أو فشل سياسة حكومته ، ولكن لانكران لهيلمانها فى العالم الحديث ، لا يضارعه ويصارعه سوى سلطان الاتحاد السوفيتى ، كل فى مجموعة الأمم التى تؤمن ، وتمارس كثيراً أو قليلا ، نظامه الاجتماعى والاقتصادى .

لقد قدرت فى مختلف ممارساتى قيمة الكتب والموسوعات العلمية التى تصدرها أمريكا ،وعرفت من طريق المسجلات أوركستراتها السيمفونية

التي تقف فى صدارة أمثالها بأوربا الغربية والشرقية. وأسمع بشهرة دار أوبرا المتروبوليتان وقاعدة كارنجى (نيويورك) وقاعة السيمفونى (بوسطن)، وطالعت شيئاً من الأدب الأمريكى الكلاسيكى والمعاصر، وعرفت بعض الأمريكان فى بلادنا، وفى أوربا، أقران علم، أو زملاء اجتماع، وأعجبت بصفات هؤلاء وأولئك وهى صفات اجتماعية تمتاز بالود والصراحة، مع بعض الاجتراء، والاعتزاز بالنفس، عثرت على تفسيره فى قول مؤرخ معاصر من مؤرخيهم: أمدت الثورة الأمريكية (للتحرر من الحكم البريطانى)، الشعب الأمريكى بمكانة مستقلة فى أسرة الأمم، وأعطته نظاماً اجتماعيًّا ينقص فيه حساب الإرث والثروة والتمييز عن حساب المساواة، وإن كانت الثقافة وآداب السلوك قد هبطت إلى أجل، فلأن المساواة بين الناس قد قويت، كذلك أهدت الثورة الشعب الأمريكى، آلاف الذكريات التي تعمل فى توطيد إحساسه القومى.

ويمكن الإضافة، تعليقاً على جملة (أعطت الثورة للشعب نظاماً انخفضت فيه المستويات الثقافية وآداب السلوك إلى أجل « قول المؤرخ ذاته: « إن المغامرات فى اتجاه الغرب حتى المحيط الباسيفيكى بذرت فى طبيعة الأمريكى العنف، وسرعة المبادرة، والأثرة، وحب التفوق على الآخرين، إلى درجة الرغبة العارمة فى الخروج عن القطيع ».

الصعود حتى جبهة تمثال الحرية

فى صباح اليوم السابق على مغادرتى أميريكا عائدًا إلى أوربا ، توجهت إلى الطرف الجنوبى لجزيرة مانهتان حيث مداخل ميناء نيويورك ، لأشاهد تمثال « الحرية تضىء العالم » . لم أكن أعرف أنه مقام فوق جزيرة صغيرة تواجه السفن القادمة ، وتودع الخارجة من المرفأ الهائل . كان يوم أحد بجمهوره ، وأغلبهم أميريكان من خارج نيويورك ، أو من داخلها . ركبنا المعدية حتى جزيرة التمثال . وعرفت عقب دخولى بناء قاعدته أن من الممكن الصعود داخل التمثال وكنت أتصور فى سذاجة أن المصعد يوصلنا إلى القمة ، فإذا به يقف نهائيًّا عند سطح القاعدة الفسيح . وللناس الخيار حينذاك فى الاكتفاء بمشاهدة المنظر حول التمثال : ناطحات السحاب فى مانهتان على القرب وبروكلن وكوينز على البعد . وهذه هى الصورة التى تنطبع عند كل مشاهد لنيويورك من الأعالى ، أو من السفن أو فى الصورة الثابتة والمتحركة .

الخيار فى ذلك ، أو فى الصعود إلى رأس التمثال من داخله ، وذلك يتم فوق درج حلزونى كدرج المآذن والفنارات . وهو صعود شاق لاجتماع الضيق ، والدوران ، والطابور الصاعد واحدًا لصق الآخر ، ويستغرق ربع ساعة أو أكثر .

بلغنا داخل الجبهة لنطل من « طاقة » صغيرة مكشوفة هى جزء من الحلية أو التاج على رأس سيدة الحضارة (الحرية) . اكتفيت بالنظرة

العابرة لأن ضيق المكان لا يسمح لغير واحد من الطابور المزدحم، بالوقوف طويلا خلف الطاقة المكشوفة. استطعت أن أرى منها إلى اليمين بعض الذراع الحاملة للشعلة، التى تضىء العالم، وعدت نازلا أدراجى.

التمثال من صنع الفنان الفرنسى فريدريك بارتولدى، أهدته الحكومة الفرنسية إلى الحكومة الأمريكية اعترافاً بجميل معاونتها فى حروبها مع إنجلترا وفرنسا هى التى قدمت فى حرب تحرير أميريكا من النير البريطانى، حملة عسكرية من خمسة آلاف رجل يقودها الكونت ده روشامبو (ماريشال فرنسا فيما بعد)، أما لافاييت فقد ذهب متطوعاً وعين فى جيش الثورة، تحت قيادة جورج واشنطون، برتبة ميجور جنرال.

والمثال الفرنسى (المتوفى عام ١٩٠٥ بارتولدى أصله من كولمار بالإلزامس، وله فيها متحف بمسقط رأسه. وقد اشتهر بارتولدى بالتعبير الوطنى، وبطريقة ضخمة لا تعنى بالتفاصيل. وقد لا يعرف الكثيرون من زوار باريس أن تمثال (أسد بلفور) بميدان دانفير - روشروه رمز الدفاع عن حصن بلفور، واحد من أحسن تماثيل بارتولدى. وأن بميدان من ميادين مدينة بال (سويسرا) مجموعة من أقوى أعماله الوطنية، تمثال نكبة فرنسا فى فقد الإلزامس فى حرب السبعين. والمجموعة تمثل « سويسرا تستقبل الإلزامس الحزينة » وتمثال القناة الإلزامسية، استطاع بارتولدى أن يركز فيه تأثرًا إنسانيًا عميقًا.

عدت إلى مانهتان لأقضى بقية اليوم وبعض المساء فى متحف « جوجنهايم » وهو بناء عجيب مستدير كأنه « بيرسلم »، ضخم، لادرج فيه (مثل بير الحلزون فى قلعة صلاح الدين) يصعد الزائر إلى أعلاه

بالمصعد، ثم ينزل على منحدر دائرى فى جوانبه حجرات أو «حنيات» العرض وهى مجرد المسافة بين المنحدر وحائط المبنى الدائرى، وتتغير معروضاتها حسب الظروف، فالمتحف مختص بأعمال الفن الحديث والمعاصر.

وفى آخر المنحدر حجرات، أو ممرات تعرض فيها بصفة دائمة مجموعة قيمة جدًّا من أعمال كبار المصورين منذ مطالع الانطباعية والتأثرية والضارية، والتكعيبية.. حتى آخر مبدعات عظماء المدرسة المعاصرة.

وأميريكا غنية جدًّا فى مقتناياتها للفن الحديث والمعاصر، كما أنها تحتوى على مجموعات فنون الشرق والغرب ومن أقاصى آسيا حتى الإقيانوسية ويمكن القول بأن مدارس التصوير والنحت الأوربى متمثلة فيها تمثلا قريبًا من الكمال. وإن كانت نسبة كبيرة من أعمال عظماء المصورين والنحاتين الأوربيين تمثل لوحاتٍ وقطعًا تتفاوت قيمتها، وهذا طبيعى فى أمة حديثة التكوين، دخلت سوق المقتنيات متأخرة. ولكن أثرياءها لا يترددون فى دفع أغلى الأثمان كلما ظهر فى السوق العالمية عمل اكتشف حديثًا. مثال ذلك صورة «المليون دولار» لرمبرانت، وربما كانت هذه فى نظرى هى الوحيدة من صور رمبرانت بمتحف المتروپوليتان (بنيويورك) التى تمثل الهولندى العظيم أحسن تمثيل.

محاولة لفهم الولايات المتحدة والأمريكان

ما إن تأكدت من تحقيق الدعوة لزيارة الولايات المتحدة فى الخريف الماضى، حتى بدأت الاطلاع الجاد على شئون تلك البلاد الواسعة التى لم أعرف عنها أكثر مما طالعت فى مؤلفات علمائها ومفكريها وأدبائها، وما رأيت من أفلامها، وسمعت من موسيقاها الكبرى (أى مما هو غير الجاز وأقربائه).

ركزت اهتمامى الأول على الجانب التاريخى من قيام الولايات المتحدة، وحرصت على وعى دستورها، وطريقة ممارسة الحكم فيها، مستعيناً بأزمة عنيفة قائمة حول رياستها، وهى المعروفة بفضيحة « ووترجيت ». والعالم يشهد سطوة الرأى العام الحر، والصحافة القوية، الطليقة من قيود الحكم والتحكم، والإيمان بدستور عاش، ويحيا دون تغيير أو تبديل منذ مائتى عام، إنما أضيفت إليه عشرون مادة تعرف بمواد التعديل أو التصحيح، مجاراة لتطور المجتمع، واتساع رقعة البلاد عبر نهر المسيسبى، مما يفرض إضافات جديدة تحقيقاً لطوارئ الحدثان، وارتقاء مدارج العمران. هذه حقيقة لا يتنبه إليها الناس عادة فى ناحيتنا من العالم، وهى أن دستور الولايات المتحدة الأمريكية هو الوثيقة الوحيدة بين أمثالها فى العالم، التى لم يتغير حرف منها على مدى قرنين من الزمان، أى منذ استقلال الولايات المتحدة الثلاث عشرة عن إنجلترا برلماناً وحكومة ومُلكاً. ولو كان الدستور البريطانى (فيما عدا « الماجناكارتا » العتيقة) وثيقة مكتوبة لكان

أسبق وأقدم الدساتير الحية فى العالم. فما أكثر ما تعدلت الدساتير منذ الثورة الفرنسية الكبرى فى أواخر القرن الثامن عشر، وكذا دساتير البلاد والأمم الأخرى. فى الشرق والغرب.

وإذا كانت هجرة «الآباء الحجاج»، ركاب السفينة «ماى فلاور»، من وطنهم الإنجليزى فى مطلع القرن السابع عشر، دفاعاً عن مذهبهم الدينى الخاص، وتخلصاً من عبودية الكنيسة الرسمية الأنجليكانية، فقد ظلوا بأرض العالم الجديد مقيمين على تقاليد الديمقراطية البريطانية مؤمنين بحرية الإنسان فى ممارسة ملته ومذهبه، والتعبير عن رأيه بلسانه وقلمه، منفردًا ومجتمعًا على مرأى ومسمع من الناس.

وعندما أجحف ملك إنجلترا والبرلمان الإنجليزى بحق مستعمرى الأرض الجديدة بأمريكا، فى ألا يفرض عليهم ضرائب دون استشارتهم، وحينما بدأ القهر لتنفيذ ما قررته الحكومة الإنجليزية من ضرائب، أضرم المهاجرون الأوائل فى ثلاث عشرة ولاية نيران الثورة على الدولة الأم، واختاروا مُزارعًا من ڤرچينيا لقيادة حرب الاستقلال، هو جورج واشنطن القائد الهادئ، والرائد الحكيم.

وخير ما يذكر بصدد هذه الثورة ونتائجها، هو وثيقة «إعلان الاستقلال» وضعتها لجنة من خمسة أعضاء جاء فيها: «..... وهذه حقائق توضح ذاتها بذاتها:

«وهى أن الناس خلقوا سواسية، وهبهم الخالق جلّ وعلا حقوقًا لا تخلى عنها، ومن بينها: الحياة، والحرية، ومتابعة السعادة. وأنه للمحافظة على هذه الحقوق تنشأ الحكومات بين الناس، تستمد سلطانها من موافقة المحكومين - وأنه حينما يبدو أن النظام الحكومى أضحى مدمرًا

لهذه الغايات، فإن من حق الشعب تغيير الحكومة، أو محوها، وإقامة حكومة جديدة يكون أساسها وعمادها هذه المبادئ، وتنظم سلطاتها بطريقة تضمن للشعب السلامة والسعادة».

الصعوبة التي نلاقيها فى فهم أمريكا والأمريكان هو أننا لا نعى سوى القليل من أصول ديمقراطيتهم، ولقد عرفت قلة من الأمريكان فى مصر وخارج مصر، مثلا فى التهذيب، رفاقاً ودودين «عِشريّين». بل كان من أكبر من أثار إحساسى بتاريخ مصر القديم هو المؤرخ الأمريكى «بريستد» فى كتبه، قرأت منها فى شبابى الأول تاريخ مصر الفرعونية فى طبعاته الأولى وفى أوائل العشرينات أو قبلها، استمعت إلى محاضرة له اجتمع فيها جمهور غفير من طلبة المدارس العليا. وختم المؤرخ الكبير محاضرته بتوجيه كلمة إلينا مفعمة بالحماس، أثارت فينا نخوة الاعتزاز الصميم بحضارة أجدادنا الأوائل. ولقد أشرت فى كتابى «سندباد مصرى» إلى هذه الواقعة وإلى أستاذ أمريكى معاصر أظنه من تلاميذ بريستد، قرأت كتابين له، ونقلت فقرات من أحدهما تدعيماً للفصل الأخير الذى خصصته للفجر المنير، وإشراق شمس الحضارة المصرية على العالم القديم. ألا وهو صديقنا الأستاذ الكبير الدكتور ويلسون الذى شرفنى بلقائه لأول مرة وقدمه إلى المرحوم العلامة الدكتور فخرى. وطالعت فيما قرأت كتاباً ما فتئ مرجعاً من مراجع الديمقراطية الأمريكية فى ثلاثنيات القرن الماضى الفرنسى الكونت الكسيس ده توكفيل.

سافرت إذن إلى الولايات المتحدة بعقل متفتح، يعرف بعض أصول ديمقراطيتها العظيمة فى صدقها، وإنسانيتها. العجيب منها أنها لم تنشأ فكرة فلسفية، ولكن بعض الرجال الأوائل الذين قادوا الثورة ضد

الإنجليز – ومنهم جيمس ماديسون، الرئيس الرابع، كانوا مطلعين إطلاعًا كافيًا على الفكر السياسى. فكان من أول ما فكر فيه واضعو الدستور أن تقوم الحكومة على ثلاث قواعد متوازية متوازنة: الهيئة التشريعية، والهيئة التنفيذية، والمحكمة الدستورية العليا، مفصلياتها تسمح بالعمل المتوافق بينها، على شريطة ألا تعدو واحدة منها على الأخرى. نشأت الفكرة بادئ ذى بدء من التجربة التاريخية لمستعمرى الأرض الجديدة، وتقوت بكتابات الفيلسوف الإنجليزى لوك، والفرنسى مونتسكيو. وكان واضحاً من كل ما خبره المستعمرون الأوائل – وجلهم بريطانيون – من النظم البريطانية، أن تقوم الهيئة التشريعية (الكونجرس) على مجلسين. وأن يجىء تمثيل الولايات فى مجلس الشيوخ متساويًا تمامًا: شيخين عن كل ولاية. أما فى مجلس ممثلى الأمة فيكون مؤسسًا على النسبة بين عدد سكان كل ولاية. ثم فحصت فكرة اختيار رئيس الولايات المتحدة هل ينتخبه الكونجرس بمجلسيه؟ ومعنى ذلك تغليب سلطاته على الرئيس بحكم انتخابه له. أو أن يقوم على التصويت العام بين كافة السكان؟ وكان هذا صعبًا بسبب اتساع رقعة الأرض التى توزع فوقها السكان، والتوسع المستمر فى المناطق الجديدة، هذا مع صعوبة المواصلات، وبطء الاتصال بين الولايات. فلم يكن ميسرًا أن يتفق اختيار مجموع السكان على مرشح واحد، أو مرشحين قلائل. ثم انتهوا إلى مجلس انتخابى (كوليدج) خاص بالرياسة، وهى خطة لم تنجح إذ لم تحسب حساب نمو الأحزاب السياسية.

أما عن المحكمة الدستورية العليا فقد انتهى الاتفاق على أن رئيس الاتحاد يعين قضائها مدى الحياة، على أساس حسن السلوك، بعد استشارة وموافقة مجلس الشيوخ.

جاء فى ختام الدستور « هذا الدستور، وقوانين الولايات المتحدة التى تصدر بمقتضاه، وكافة المعاهدات المعقودة، أو التى تعقد فيها بعد تحت سلطات الولايات المتحدة، هى القانون الأعلى للبلاد. والقضاة فى كل ولاية مقيدون به، مهما جاء فى دساتير وقوانين الولايات مما يعارضه ويخالفه».

وفى السابع عشر من سبتمبر عام ١٧٨٧ عقد المجلس التأسيسى (الكونفانسيون) آخر جلساته ووقع الأعضاء على الوثيقة التاريخية، باستثناء ثلاثة من الحاضرين رفضوا التوقيع.

كان الأعضاء شديدى التأثر باللحظة العظيمة، فى حين استغرق الرئيس واشنطون فى تفكير عميق. وخفف توتر الجو العلامة والكاتب بنيامين فرنكلين، أول سفير للولايات المتحدة لدى فرنسا، قائلا، وهو يشير إلى نصف قرص الشمس المرسوم بخطوط ذهبية على ظهر مقعد الرئيس: «إن الفنانين لاقوا دائماً صعوبة فى التمييز بين أن يمثل الرسم شمسًا طالعة، أم شمسًا غاربة. ما أكثر ما تطلعت فى هذه الجلسات إلى الرسم خلف ظهر الرئيس يداولنى الأمل والتوجس فى نتيجة أعمالنا، دون الحكم بأن الشمس طالعة أو غاربة. والآن، أخيرًا، أعبر عن سعادتى بالتحقق من أنها شمس مشرقة».

ومع ذلك فإن الرئيس الثالث للولايات المتحدة، توماس جفرسون يعترف «بأن المساواة ليست تامة فى أمريكا، فثمة عدم المساواة بين الفقير والغنى، بين النساء والرجال، بين السود والبيض. ولكن فشل المجتمع فى تحقيق المثالية لا ينفيها. لأن التمسك بالمثل العليا فى المساواة، وقد أعلنت، تعمل عمل الخمائر فى الفكر الأمريكى».

واختتم هذا المقال بالشعار القائم على رأس صفحة الرأى بجريدة « تشيكاجو تريبيون » منذ صدور أول عدد لها فى ١٠ يونية عام ١٨٤٧ : الجريدة منشأة نمت بالحضارة الحديثة ، لتقديم الأخبار اليومية ، ولرعاية التجارة والصناعة ، ولتنوير الرأى العام ، وقيادته ، ولكى تقيم الرقابة على الحكومة التى لم يتمكن دستور من الدساتير من القيام بها » .

رؤية شعب من الداخل..

لم أكن فى رحلتى الأمريكية غير ضيف عابر سبيل دعاه « مركز البحث العلمى الأمريكى بمصر » - بصفتى عضو شرف به - إلى الاجتماع السنوى لأعضائه بمدينة بوسطن، حيث تلقى المحاضرات العلمية المتخصصة فى حضارات مصر : فرعونية، ومسيحية، وإسلامية، وفى دراسات المجتمع المصرى الحديث. ولقد دعتنى بهذه المناسبة خمس جامعات للتحدث فى موضوعات مصرية اخترت لها أربع محاضرات تمثل نشاطى العلمى والثقافى فاكتفت كلها باختيار موضوعين من أيسرها تناولا، ومما يتصل بشئون الأقسام صاحبة الدعوة، وهى أقسام الشرق الأدنى بجامعات نيويورك سيتى وهارفارد، وبرنستون، ويوتا (بمدينة صولت ليك سيتى)، وواشنطن (بمدينة سياتل على شاطئ الباسيفيك، إلى الشمال الغربى من ولاية واشنطن).

لو أننى عشت أربعة أسابيع الرحلة فى مدينة واحدة، لاستطعت اكتشاف حياة هذه المدينة، والتعرف على صورة أقرب إلى الصحة للحياة الأمريكية فى تلك المدينة. أما أن أزور فى أربعة أسابيع. ثمان من المدن خطفًا، فما كان أشبهنى بما كنت أسمعه فى أوربا تندرًا بالسياح الأمريكيين فى عمومهم.

كانت تلك الزيارات الخاطفة فى مجموعها اتصالا سريعًا بالجامعيين حتى فى البلاد التى لم أحاضر بجامعاتها، مثل واشنطن دى. سى. (أى

دستريكت أوف كولومبيا توكيدًا لأن المقصود هنا هو عاصمة الولايات المتحدة، لا ولاية واشنطن السابق الإشارة إليها). وسان فرانسسكو (جامعة بيركلى)، وشيكاجو.

ولقد أحسست بأن صورة الحياة الأمريكية - على ما بها من تشابه سطحى، هو الواقع دائماً فى الأمة الواحدة، أى التشابه المادى فى «صنعة الحياة» فهى تتميز فى كل مدينة زرتها بطابع خاص: أهل الشمال الشرقى فى الولايات التى تعرف فى مجموعها باسم «نيو إنجلند» يبدون لى مختلفين إلى حد واضح. عن أهل الغرب الأقصى (فى ولايتى واشنطن وكاليفورنيا).

وأن مدينة مثل صولت ليك سيتى، عاصمة ولاية يوتا، إلى الغرب من سلسلة «الروكى ماونتنز» قد انطبعت انطباعًا وثيقًا بحياة منشئيها. وهم «المورمون» تلك الطائفة التى أنشأ مذهبها المسيحى الخاص فى ثلاثينات القرن الماضى، جوزيف سميث. وتعرف كنيستها باسم «كنيسة قديسى آخر الزمان»، وهى الولاية الوحيدة التى تجمع فى حجرات فنادقها بين «الكتاب المقدس»، و«كتاب المورمون». ولعلى أعود إلى هذا الموضوع فى فرصة أخرى.

وأن سان فرنسسكو، وإن ذكرتنى بنيويورك فى ازدحامها، واتساعها ووقوعها على شاطئ إقيانوس هام، فقد شعرت بأن أهل شاطئ الباسيفيك فيهم سعات إنسانية تختلف عن سعات أهل نيويورك معترك المال والتجارة، وعاصمة الاقتصاد الأمريكى كله.

وأن عاصمة الاتحاد الفيديرالى، واشنطن دى. سى. فرضت على الاحترام والحب، بهدوئها الشاعرى على ضفاف نهر البوتوماك، وبطرقاتها

الفسيحة الممتدة ، التى تتوهج نظافة بين مبانيها السامقة دون مغالاة ، ينشرح الصدر لمرآها . لم أشهد فى واشنطن زحام الأفاريز ، إلا على الضفة الأخرى لنهر البوتوماك ، أى فى قسطها ، أو ضاحيتها التابعة لولاية فرجنيا ، والمعروفة عن قديم باسم « جورجتاون » . أما شيكاجو ، فإن موقعها على ضفة بحيرة ميتشيجان ، يتمثل فى جمال ناطحات السحاب أصدق تمثيل . على عكس ناطحات نيويورك . فهذه شىء مخيف ، مقبض ، لا يخففه سوى الشطر الشمالى من الجادة الخامسة (فيفث آفنيو) ، إذا أتيح تأملها من واجهة مانهتان على السنترال بارك ، أو من فوق سطح القاعدة المقام عليها تمثال الحرية بميناء نيويورك ولن أنسى ، صبيحة خروجى إلى كورنيش ميتشيجان ، على مقربة من الفندق ، واتجاهى إلى الشمال سيرًا على الأقدام نحو ساعة حتى بلغت وسط المدينة الباهرة الزاخرة ، شيكاجو . فناطحات السحاب تبدو هنا بنظامها الكامل . وجمال عمارتها شىء رائع كل الروعة . ولقد عرفت فى شيكاجو أن الفضل فى عمارة الناطحات راجع إلى معماريها العظام ، وكانوا أول من ابتدع ذلك الفن المعمارى الخاص بالعالم الجديد (فرانك لويدرايت ، سوريين ، فالترجوربيوس ، لودفيج ميس فان دوروهه) .

وعندما عدت إلى بوسطن حيث نزلت ضيفًا على « مركز البحث العلمى الأمريكى بمصر » حضرت مآدب أعضائه واستمعت يومين كاملين إلى محاضريهم المتخصصين فى الفن الإسلامى والحضارة الفرعونية ، والمجتمع المصرى الحديث ، والمناقشات التى دارت عقب كل محاضرة .

وبوسطن حاضرة ولاية ماساتشوستس هى مهاد الحضارة الأمريكية ، ومركز حركة التحرير والثورة على الإنجليز ، لا يفهم قيمتها – كعاصمة

للفن والأدب والعلم - إلا لمن يعرف أصول التاريخ الأمريكى منذ مجىء الآباء الحجاج، على السفينة (ماى فلاور) فى مطالع القرن السابع عشر. ويمكن القول إجمالا بأن مجموعة الولايات فى الشمال الشرقى للبلاد المعروفة باسم «نيو إنجلند» هى التى أنبتت أبطال الثورة والدستور، منشئى هذه الدولة العظيمة: واشنطن وجفرسون وهاملتون وبنيامين فرانكلين وأسرة أدامز أعرق الأسرات الأمريكية، وجلهم إما من مدينة بوسطن، أو من ولايتى ماساتشوسيس وفرجينيا. وضاحية كامبردج إلى الشمال من نهر تشارلس، تربطها ببوسطن تسعة من الكبارى، أنشئت سنة ١٦٣٠ وأطلق عليها سنة ١٦٣٨ اسم المدينة الجامعية الإنجليزية المشهورة، وقد اشتهرت بدورها منذ قامت فيها كلية اللاهوت (١٦٢٦)، وأصبحت بهذا أقدم وأوسع جامعات للولايات المتحدة صيتاً. أطلق عليها اسم جون هارفارد القس البيوريتانى (١٦٠٧ - ١٦٣٨)، منذ أن أهداها بضع مئات من الجنيهات. وتحولت تحت رياسة شارلس إليوت (١٨٣٤ - ١٩٢٦) إلى جامعة حديثة مستكملة كلياتها (فى ثلاثمائة مبنى) ومنشآتها، حتى أصبحت وسط كامبردج مدينة جامعية كاملة، فيما عدا كليتى الطب وطب الأسنان، القائمتين بمدينة بوسطن.

كان طبيعيًّا أن أغدو شديد الإعجاب بالتاريخ الأمريكى، وقد عرفته متأخرًا جدًّا، لأن حياتنا الثقافية بمصر، بعد أن تفتحت على أوربا، لم تعرف سوى تاريخ فرنسا، وخاصة منذ ثورتها الكبرى. وأقل منه تاريخ إنجلترا، ويمكن التسلسل فى قلة المعرفة عندْ ذكر البلاد الأوربية الأخرى. فنحن نجهل تاريخ ألمانيا الحديثة، ونعرف من التاريخ الإيطالى عصر النهضة الفاخر، نقفز منه إلى عصر الوحدة الإيطالية فى أواخر القرن

الماضي ومن تاريخ روسيا نذكر بعض آثار وأعمال بطرس الأكبر، منشئ سان بطرسبورج، عاصمة القياصرة. كما نطلع على أعمال كبار أدبائها وموسيقييها. مما يجعلنا نلم ببعض تاريخ روسيا القيصرية فى القرن التاسع عشر. فإذا انفجرت الثورة الروسية عام ١٩١٧. بدأت معرفتنا بها مبتورة بسبب حصار الغرب لها وراء ما عرف «بالنطاق الصحى»، وجدد الاسم الاستعماري ونستون تشرتشل عندما تحدث عن «الستار الحديدى». ولكننا تابعنا بعض مسيرة لينين وهو حى، وسمعنا بوفاته، وازداد اطلاعنا على الاتحاد السوفيتى فى سنوات الحرب العالمية الثانية، عندما كان للجيش الروسى البطل دور كبير فى القضاء على الطغمة النازية.

بدأت متابعة التعرف على أمريكا من بعض الكتب الصغيرة المهداة إلىّ، ومن كتاب رائد حقًا هو «تاريخ الجيب للولايات المتحدة»، تأليف نيفنز وهنرى كوماجر. وتاريخ أمريكا صورة لأثر ثقافة تالدة (الحضارة الأوربية) على فضاء متوحش، استعمره المهاجرون الأوائل ومن تبعهم، فاستطاعوا أن يقفزوا بالعالم الجديد فعلا عبر آلاف السنين من تاريخ الحضارة الأوربية أظهرت تلك البلاد الشاسعة على مسرح التاريخ جريئة نامية متحفزة. ذلك لأن المستعمرين الأوربيين الأوائل كانوا رجال حضارة نقلوا إلى القارة الأمريكية حضارة القرون السالفة.

كان نمو الولايات المتحدة حدثًا جديدًا على التاريخ. لأن القضاء المتوحش بغاباته وصحاريه وجباله وأنهاره، روافد المسيسيبى يواجه الرواد من شواطئ الأطلنطى حتى شواطئ الباسيفيك فكان من آثار ذلك اللقاء القاهر بين خليط من الشعوب والأجناس والملل والنحل تعديل الثقافات والمؤسسات الموروثة. إن إنشاء وتحقيق الاتحاد الأمريكى أعظم التجارب طموحًا، نتيجة هذا الخليط يجمع بين الخير والشر والفن، والروح العملية

والمثالية عند الإنجليز والإسكتلنديين والأيرلنديين والجرمان والطليان والإسكندناف ، والتشيك والمجر والأسبان ، واليهود من هؤلاء وأولئك ومن بولندة وروسيا ...إلخ .

أقول : كانت أمريكا أعظم التجارب نجاحًا من أثر اختلاط كل تلك الشعوب والأجناس تأكدت فيها الحرية الدينية والسماحة بين العناصر المختلفة ، والمساواة الاجتماعية ، والفرص الاقتصادية المتاحة ، والديمقراطية السياسية . وإذا بحثنا عن « التيما » [اللحن الأساسى] فى الحياة الأمريكية فإنا لواجدونه قطعًا فى نمو الشعب على قدر من الذكاء والخبرة كاف للحاجة القصوى إلى الحرية ، وعلى استعداد للعمل فى سبيلها ، بل وللكفاح من أجلها .

لعبة الشوافين والمشوفين

ارتأيت، حيال صعوبة النفاذ إلى بعض صميم الحياة الأمريكية فى رحلة خاطفة، أن ألجأ إلى انطباعات الروائيين المؤسسة على تصوير ناقد، وخاصة بعد أن قرأت هناك كتاباً جادًا - وليس رواية - أقلق راحتى، لما جاء به من وصف لما سماه المؤلف «الدبلوماسية السرية» لحكومة الولايات المتحدة، بعد كل ما عرفت عن فضيحة ووترجيت التى ما فتئت عفونتها تزكم أنوف الشعب الأمريكى. صور صاحب كتاب الدبلوماسية السرية بطريقة أشبه بالقصص البوليسى - وهو يروى فيما يزعم وقائع صحيحة - كيف تقوم الزعامات ببعض البلاد المتخلفة، عندما تحاول «الدبلوماسية السرية» ابعاد تلك البلاد عن المحظور الاجتماعى، (طالع: الخطر الشيوعى).

قرأت فى هذا الكتاب المعقد العجيب كيف يعد «الدبلوماسيون» المختفون الحُكّامَ فى تلك البلاد. وهم فى هذا أشبه بفنان الأراجوز، يعد شخوصه الخشبية ذات الأسمال لعرضها فى جوسقه، ويجعلها تتكلم من بطنه حسب سرد قصتها.

تقززت نفسى من هذه الإجراءات التى إن صحت - وأشك فى تمثيلها واقعًا بعينه - فاللعنة على من يقومون بأمثال تلك الألاعيب، وعلى من شاركوا أو تحركوا بفعلها عن إدراك أو غير إدراك.

لا شك أن بلوغ القمة فى عالم «الإنجازات الحرة»، والاندفاع فى

طريق الحضارة الآلية، فيما يوصف بالتكنولوجيا، والتكنوقراطية، قد خلق مشاكل اجتماعية خاصة بمجتمع الرفاهية، القائم على تضخم فى الصناعة، والاستهلاك ولقد طالعت صورة جانبية، خيالية، فى قصة وقعت بين يدى صدفة فى خلال انتقالاتى. قلبّت صفحاتها متعجلا دون اهتمام كبير، وأعدتها لصاحبها بعد الإلمام بفكرتها. وإذْ بى ألتقى بتلك القصة مترجمة إلى الفرنسية، ونشرت فى أثناء إقامتى بباريس بعد انتهاء رحلتى الأمريكية، فلم أُعْن باقتناء الترجمة، مكتفيًا بما كتب عنها النقاد فى الصحف والمجلات الفرنسية.

كتاب الدبلوماسية المتخفية يزعم أنه يصف وقائع حدثت. أما القصة فمن بنات أفكار مؤلفها، يصور لعبة اجتماعية لا سياسية، ولا شأن لها بدول متخفية بل بالمجتمع الأمريكى ذاته فى المدن الضخمة المتخمة. كاتبها رجل من أصل بلغارى أمريكى التبعية اسمه أزى (على وزن عزى) أبراهامى. حظيت القصة لدى ظهورها سنة ١٩٧٢ بإعجاب اثنين من أشهر النقاد الأمريكيين (مارشال ماك لوهان، وأنطونى برجى)، على الرغم من أنها تنضوى تحت مؤلفات بعض اليهود الأمريكيين الذين درجوا على النقد القاسى للنهج الأمريكى فى الحياة (أمريكان واى أف لايف). وهذا القصص الأمريكى المعنى بما يوصف بأزمة الحضارة الصناعية اتخذ مجراه فى تيارين: تيار الروائى دوس باسوس، وزميله باروز (راجع مقالا عن رواية للأول فى إعداد السنة الأولى لمجلة «المجلة»)، وفيها يفتت الكاتب جسم السرد الروائى، رمزًا إلى تفكك المجتمع. والتيار الآخر يستعير أسلوب القصة الفلسفية تتندر باختلال المجتمع وتضخمه. وقصة إزى أبراهامى وعنوانها «لعبة المجمعات السكنية» تنهج الأسلوب الأخير.

أمريكي من الطبقة الوسطى، لا يحدد المؤلف عمره ولا اسمه يعيش بين الزوجة «خميرة العكننة»، والتليفزيون فى شقته بتلك المجمعات التى تشبه علب الكبريت أو خلايا النحل وتبنى لأوساط الناس فى بلوكات شاهقة تتواجه حول باحة مزروعة (ربما)، هى متنفس الآلاف من سكانها.

يضيق الرجل بشعور المحكوم عليه بنمط واحد فى الحياة، لا يتغير بين مقر عمله، ومسكنه، وتليفزيونه الملون، وسريره بالإضافة إلى تعليقات زوجته.

يخرج ذات ليلة إلى الطنف يتأمل أمامه عن بعد أو قرب، مئات النوافذ، تداولها الإضاءة والإظلام، فيرى وراءها «عالم الآخرين». ما أشبه المنظر بالصندوق الآلى (الجوك بوكس) الذى تحتويه مقاهى أوربا وأمريكا، ويعرف فيما أظن بالبلياردو الكهربائى.

يحدث نفسه وهو يحدد بصره إلى نافذة فيقول: «إذا أطفئ نور النافذة الثالثة من الدور الثانى فى البلوك حرف د، قبل عشر ثوان فإنى أهجر زوجتى. ولم يطفأ النور، ولا هجر العقيلة، بل اخترع «لعبة المجمعات السكنية، فمن يرى زنجيًا فى إحدى الشقق يكسب ١٥ بنطاً (لقلة الزنوج فى تلك المجمعات)، ومن يكتشف خلوة شرعية يكسب ٣٢ بنطاً، ومن يرى أكوار يوم سمك أحمر يكسب ٦ أبناط. أما من يشهد مكنسة كهربائية (منظرًا معتادًا) يخسر ٧.

وتبلغ خسارته ٧٣ بنطاً إذا رأى أمرأة عارية (منظرًا دارجًا معتادًا). وبهذا اكتشف «شواف البلكون» لعبة أكثر إثارة من سخف التليفزيون. لعبة منزلية أنيسة، تشاركه فيها العقيلة، فتعقل لسانها عنه ولو قليلا.

لا حاجة لمن يمارسها إلا إلى لوحة حساب، ومنظارين مقربين. ينظر اللاعب المخترع إلى مئات النوافذ أمامه. ويبدأ لعبة الكشف، وتسجل الزوجة حقه من النقط حسب القائمة التى رصداها مقدماً. ويسجل هو للزوجة حسابها. والمفروض - كما ذكرت - أنه كلما كان المنظر نادراً غير معتاد ارتفع رصيد النقط: أسرة من الزنوج: ١٥ بنطاً، تليفزيون مطفأ: ١٢ بنطًا خلوة شرعية: ٣٢. رجل يقرأ شعراً: ٦٣ : أما من يكتشف قارئًا أو قارئة لرواية من روايات جيمس جوين، أو مارسيل بروست، فالشواف يكسب نهائيًا. وحساب السالب: امرأة متجردة يخسر الشواف ٧٣ بنطاً، مكتسة كهربائية يخسر ٧ أبناط ... إلخ.

حل الوئام بين الزوجين بفضل اللعبة الشيقة التى محت على الأقل التليفزيون من حياتها. ولكن اللعبة أثارت الرعب وسط السكان: فمن هؤلاء الجيران يباشرون مراقبتنا عيانًا بيانًا دون خجل، أو محاولة الاختفاء. ماذا يراقبون؟ أهُمْ من رجال الشرطة السرية الذين تبثهم مصلحة الضرائب، مثلا. أم هم من «الشوافين» الملحوسين بالجنس «وكلما سدر الزوجان فى غيهما الشاذ، ارتفعت درجة القلق، إلى أن ضم السكان شملهم لتبادل الرأى فيما يصنعون ليوقفوا هذا الكشف عن العورات. وينتهى الأمر إلى الشرطة، والتحقيق الذى لا يسفر عن شيء. فلا مؤاخذة على لعبة التسالى بين زوجين ضاقا ذرعًا بالعيشة وبالتليفزيون.

لعبة التسالى. والله فكرة! وانتشرت لعبة الشوافين بين آلاف السكان فى مئات المجمعات ذات الساحة المتوسطة، أو التى تتواجه فى الشوارع الصغيرة. وإذا كانت اللعبة واحدة فى فكرتها، فليس معنى هذا التوحيد فى

التقدير . وقد اتضح لخيال المؤلف النقادة اتجاه الأغلبية إلى أن الظافر فى اللعبة لا يكتشف قارئ بروست ، بل من يسعده الحظ بالكشف عن ... قارئ أو قارئة .. للكتاب المقدس . كذا ! .

ويتطرق المؤلف ازى أبراهامى إلى فلسفة اللعبة ، وهى محاولة الفرد والمجموع التخلص من رتابة الحياة ، وقلة طعمها ، والخروج عن « القطيع » متميزاً عن الجماعة . فقد تحول سكان المجمعات إلى « شوافين ومشوفين » ، كل يحاول الظهور على الآخرين ليكسب فى لعبة « الاستاندنج » ، وهو التميز الاجتماعى ، كما حاول فى مظهر حياته وملبسه وطعامه ، ولهوه وركوبته .. وتليفزيونه الملون ، وغير هذا من الوسائل التى لا تعد ولا تحصى فى المجتمع الاستهلاكى .

وتفقد لعبة الشوافين سحرها ، وإسعادها للناس ، وبالتالى أثرها العلاجى لمجتمع مصاب بالتبرم ، والحساسية الاجتماعية ، فى حضارة البلف ، والمظاهر الخداعة ، وكل ما ينتهى بهم إلى الإخفاق درجة تفوق الاحتمال ضجيجًا ، والاجهاض .

قصة معاصرة ، فيها مسيس من القصص الفلسفى الساخر ، ينقد بعض مظاهر الحياة الأمريكية ، وبالأولى حياة المجتمعات التكنولوجية الاستهلاكية ، ويصور حياة « التشوف » لمجتمع كسيح الحياة العاطفية التى لا تمتد إلى أطول من ذراعه . فهو يقول لنا : تأملوا فترينات الأفنيو الخامس ، وأرصفته الواسعة ، ملتقى ومسار المجتمع « الشواف » الباحث عما يميزه فيما إذا اقتنى بعض ما يشاهده فى فخامة أضواء الفترينات . هلا يتساءل رجل البلكون عن الحل الحقيقى لحياته ؟ أهو الهروب من المدينة العملاقة إلى أرباضها ، بل إلى الفضاء الفسيح حولها ، ليشغل نفسه

« بتعهد حديقته » على حد قول فولتير . هل الحضارة شيء أكثر من أن يعنى الإنسان بزرعه وجنيه وحصاده .. وبأزهار الحياة ؟ .

حاشية : عرفت بعد كتابة هذا أن الحكومة الأمريكية تشجع منذ عام ١٩٤٥ بناء الفيلات خارج المدن . وقد أدى هذا إلى أن شركات النقل العام لا تستطيع أن تؤدى مهمتها دون خسائر كبيرة . فكل هؤلاء السكان المنتشرين فى خلاء واسع مشتت ، بعيد عن المدينة ، لا يهمهم أمر النقل العام ، وهم فى سيارتهم الخاصة . ثم علمت بعد هذا من خبر قرأته ، أن الرئيس جيرالدفورد تقدم بقانون مالى يخصص مبلغ ١٥ بليون دولار لمساعدة شركات النقل المشترك فى المدن الأمريكية على مدى السنوات الست القادمة ، لأن هذه الشركات فى طريقها إلى الإفلاس العاجل ، وقد نقصت نسبة من يستعمل أتوبيساتها من ١٦ فى المائة عام ١٩٥٠ إلى ٤ فى المائة سنة ١٩٧١ ، فى حين ازدحمت شوارع وسط المدينة (داون تاون) بالسيارات الخاصة والتاكسى إلى درجة تفوق الاحتمال ، ضجيجًا وإفسادًا للجو .

صورة مشرقة لحياة صحفى أمريكى

ليس من الإنصاف الوقوف عند تصوير ازى أبراهامى، فى لعبة «الشوافين والمشوفين» لعيب من عيوب الحياة الأمريكية، وما أكثرها، علماً بأن الأمريكان وأدباءهم على الخصوص، لا يقصرون بل هم يتمادون فى الكشف عنها. وشاءت المصادفة، بعد الانتهاء من مقالى السابق بباريس، أن تنعى شركات الأنباء العالمية الصحفى الأمريكى الكبير وولتر ليمان. توفى فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٤، وقد بلغ الخامسة والثمانين. ومجرد سرد سريع لحياة هذا المعاصر النابه، تعطينا صورة نموذجية للنخبة الممتازة فى مجتمع الولايات المتحدة.

كان وولتر ليمان مؤسسة قومية، وضع أرشيفه الخاص فى قسم المخطوطات بجامعة «ييل». لعب الرجل دوراً كبيراً فى الحياة الفكرية الأمريكية، لم يبرز فيه بكفاح الأكتاف فى مجتمع المنافسة واللكم تحت الحزام، ولكن بحق ألمعيته وذكائه، وصدق نظره. اكتشفه الفيلسوف وليام جيمس «شقيق الروائى الشهير» عندما طالع مصادفة، وفى العام الأخير من حياته «١٩١١» مقالا للطالب وولترليمان فى الصحيفة الشهرية لجامعة هارفارد.

ولد ليمان عام ١٨٨٩ من أبوين ثريين آل ثقافة وعقلانية، منحدرين من نسل يهود ألمان هاجروا قديما فيما يوصف «بالهجرة الألمانية اليهودية المحترمة، ويبدو أنه لا اليهودية ولا أى دين آخر، لعبت دوراً فى تكوين

الشاب وولتر، وقد تلقى التربية «الهيومانية» التى يحصلها أبناء الطبقة الميسرة. التحق بجامعة هارفارد المتفتحة لكل الآراء. وهناك تعلم على وليام جيمس والفيلسوف الإسبانى سانتيانا، والاشتراكى البريطانى تشارلس إليوت. فنشأ الفتى حساسًا بشقاء الإنسانية، وترأس فى هارفارد النادى الاشتراكى، وكرس بعض وقته للمساعدة فى مركز العناية بالمعوزين. ثم اكتشف أنه لا يصلح لهذا ولا لذاك، فكانت حياته فيما بعد توازنًا بين الاجتهادين.

بدأ حياته الصحفية فى جريدة تقدمية بمدينة بوسطن. وعندما انتقل إلى نيويورك عاشر التقدميين السياسيين، والفنانين من الطبقة الثرية التى تغامر فى الحياة الاجتماعية دفاعًا عن قضايا العصر. فخرجت من هذا الوسط مجلة أسبوعية متواضعة حجمًا ومظهرًا. ظهر أول عدد منها سنة ١٩١٤، وعاشت إلى اليوم، وهى «الجمهورية الحديثة» تدافع عن السلام دون التسليم. وبمعنى آخر، كانت مجلة ليبرالية تميل إلى اليسار. وفى عام صدورها ذاته، تأهب ليمان لقضاء بعض الصيف فى سويسرا مارًّا بألمانيا ...... وإذا به يفاجأ بخبر تقديم ألمانية الهوهنزوليرن إنذارها إلى بلجيكا، وإقفال الحدود نذيرًا بالحرب. وفى عام ١٩١٦ - وقد قامت الحرب الضروس الأولى - نادى فى «الجمهورية الجديدة» بإعادة انتخاب الرئيس وودرو ويلسن عن «الحزب الديمقراطى». ودرجت المجلة على مؤازرة ويلسون مدى العامين التاليين. وإذ كان ليمان على صلة وثيقة بالكولونيل هاوس، القوة الخفية وراء الرئيس ويلسون، فقد أوفده هذا إلى باريس فى مهمة دعائية. وهناك كلفه هاوس بإعداد مشروع بلاغ يقدمه ويلسون إلى الحلفاء.

وكان هذا هو الأصل فيما عرف باسم «نقاط ويلسون الأربع عشرة»، ومن بينها نقطة ارتكاز دولية للحركة الوطنية المصرية «ثورة ١٩١٩». وإذا بالحلفاء الكرام بقيادة بريطانيا الظافرة، يجرون رئيس الولايات المتحدة إلى الاعتراف بالحماية البريطانية المبسوطة على مصر. ويدرك لبمان عندما يتغلب النمر كليمانصوه، والثعلب لويد جورج على ويلسون «الملائكى»: إن المغامرة على صلح عادل بين المتحاربين .. خاسرة، فيعود إلى المجلة ليكتب ضد توقيع معاهدة فرساى.

ينفصل لبمان عن «الجمهورية الجديدة» لينخرط فى سلك محررى صحيفة «الويرلد نيوز»، التى تسقط عام ١٩٣١ أمام حملات «النيويورك تايمز» و «النيويورك هيرالد» و «التربيون»، فيلتحق بهذه الأخيرة، ويبقى بها مدى ثلاثين عامًا يحرر مقالين كل أسبوع بعنوان ثابت «اليوم وغدًا» يطالعهما مئات الآلاف من القراء فيما يعبر به الصحفى النابه عن الوقائع والرجال ذوى النفوذ وقد قفز دون جهد إلى الصفوف الأولى من الصحفيين ذوى الرأى الناصع الرصين. لم ينخدع بنفوذه، وبقوة «المعلق على الرجال والأحداث»، والمعلّق على كلامه، ولكنه لم يفقد الأمل فى اعتباره ناصحًا سقراطيًّا ديموقراطيًّا لزمانه، وأهل زمانه.

كان لبمان أولا وقبل كل شىء ابن عصر «التنوير»: (بعقلية فرنسية، وتمسك جاد بإعمال الرأى)، كما كتب عنه صديق. وكاتب آخر يصف أسلوبه «بالتحفظ الدقيق المتعقل، متجنبًا إثارة الفزع ... لأن لبمان لا يدخل المعارك بل يراقبها عن بعد، من موقف الموضوعية». يقول بأنه لا يعالج الشئون السياسية إلا بوجه عام. وليس مستعدًا لرفع راية، والاندفاع بها إلى المعركة. سر نجاحه فى ربع القرن الأخير أنه يعمل على

ضوء الحجا فى معالجة المسائل الخارجية والداخلية ، لا يتكلم عن شخصه ، ولا يعنى بالأمور الشخصية ، ولا بالخبطات الصحفية والتنبؤ. كلامه يبنى على معلومات وثيقة . وهو القائل : « ليس كافياً أن ننقد سياسة رجل عام ، يجب علينا أن نتصور أنفسنا مكانه ، فى جلده ، لأننا بدون مواجهة الحقائق التى واجهها ويواجهها ، لن نصل إلى غير ما يشبه القائل : أنا أحسن منك .

كتب لبمان فى آخر الثلاثينات : « لتقوية دوام الجمهورية فى عصور الحروب والثورات ، واجب وضرورة أن نحافظ على اقتران الحرية ، كما مارسها جفرسون ، والسلطة ، التى طالب بها هاملتون . وليس أضر بنا من عدم الإحساس بهذين المبدأين : الحرية التى لا تفترق عن السلطة ، وعشق الحرية . مبدآن يدفعانا إلى سن قوانين تدافع عنها ، وتقومها . كما أن التوجس من الحرية يجرنا إلى إنكارها وخنقها . إنما الحرية فى حماية القانون المرضى عنه من الناس هى التى تعمر طويلا » .

هذا كلام يقوله صحافى عاصر ١٢ رئيسًا للولايات المتحدة « من مجموع ٣٨ رئيسًا منذ « جورج واشنطن » . تلقى دروسه الصحفية من أسرار حياة أغلبهم ، وكأنه هدف إلى أن يصبح المفكر السياسى لعصره وقد كان ، بشهادة أكثر من مؤرخ .

حيا الرئيس جيرالد فورد ذكرى الفقيد فى برقية التعزية قائلا : « أمريكى عظيم قام بدور كبير على مدى نيف ونصف القرن ، مبرزًا فى تنمية المساجلات العامة ، وفى بلوغ مستوى جديد للصحافة » .

بعد عام ١٩٣٨ انتقل وولترلبمان إلى واشنطن ووسع أفقه . وحينذاك بدأنا هنا بالتعرف على الرجل من قراءة بعض كتاباته فى شتى القضايا ،

حيث أصدر كتابه « سياسة الولايات المتحدة الخارجية بعد الحرب العالمية الثانية » ينادى فيه بالتبعات التى تتحملها بلاده أمام العالم. وفى كتابه « الحرب الباردة » ، نادى بأنه لاسلام دون جلاء كافة الجيوش عن المانيا.

ويتساءل الصحفى الفرنسى جان لاكورتور: «هل كان التزمت البيوريتانى الأمريكى يجد مثالا لتجسيد وظيفة الناقد السياسى مثلما وجد فى ذلك الفحص الدقيق الذى دفع بصحف « الواشنطن بوست » و « النيويورك تايمز» و « اللوس أنجيليس تايمز» إلى الكشف عن أكاذيب الرئيس نكسون ، وعن العصابة التى فرضها على الشعب الأمريكى ».

ويشهد لاكورتور بأنه ، وقد عرف لبمان شخصيًا منذ عشر سنوات ، بأن الرجل لم يضعف مرة واحدة ، ولا تقاعس فى كفاحه ضد طغيان الإمبريالية الأمريكية ... قال ، وقد بلغ الثالثة والثمانين ، فى آخر لقاء بمنزله مع الصحفى الفرنسى : « إن الفساد المحكم الحلقات حول هذا النكسون ، أسوأ من كل مارأيت فى حكم الأحد عشر رئيسًا الذين عرفتهم « كان الحديث قبل تولى فورد » . أن روح الديمقراطية فى خطر. والحق أننا لم نحظ بعد فرنكلين روزفلت برياسة ذات جدارة . لقد قسوت على آل كنيدى ، بالرغم من ثراء أفكارهم ، ولكن الأهم والأساس فى الحياة العامة ليس الألمعية ، وإنما هو القوام الخلقى ».

نموذج من أزمات المجتمع الأمريكى ووسائل إصلاحها

نحاول فى بلادنا معالجة أزمات المجتمع المصرى بصدق نية، وأشعر أن سلامة الوسائل، وأن تعثرت، فإن النوايا الصادقة لدى المحكومين والحاكمين، واصلة بنا إلى بر السلامة والسلام، على قواعد أمينة آمنة، أولها تحرير الأرض، وآخرها تنظيف أسطبلات « أوجياس » من المرتشين، والمتسيبين، والمستهترين، وفاقدى الكفاءة، ضعاف القدرة إلا على خدمة أنفسهم.

ولقد حاولت فى هذه الفصول، نتاج رحلتى الخاطفة، النفاذ إلى المجتمع الأمريكى لا عن طريق دراسة مكانية، ولكن بتناول تكوينه التاريخى، منذ الهجرات الأولى فى القرن السابع عشر. وقد اتضح لنا أن « الآباء المؤسسين » للديموقراطية الأمريكية، وللوحدة الفيدرالية، كانوا متفتحى الأعين على التعليم والتربية، والممارسات الاجتماعية، كأساس صحيح متين فى ظل دستور ثابت، وقابل للإضافات التى تفرضها سنن التقدم، وتحت رقابة قانونية من محكمة دستورية عليا. وأن قيام المجتمع على هذه القواعد فيه كل الضمان للحرية التى لا تتجزأ، وللديمقراطية الهادفة إلى المساواة، على حد قول هوبهاوس (السياسى البريطانى) : « الحرية بدون المساواة اسم فخيم الرنين، زرى المضمون ». ومن هنا جاء التوكيد فى النصف الثانى من القرن الحالى على النواحى الاقتصادية والاجتماعية التى يدور فيها الكفاح من أجل الحرية. ومما حفظ للنظام اللبرالى حياته هو

بعض العناصر التى مكنته من إقامة مجتمع متفتح، وحياه هانئة نوعًا. وبيان هذه العناصر:

١ - باب الترقى المفتوح للكفاءة والموهبة.

٢ - المبدأ الذى لا يهدف إلى المساواة بذاتها، ولكنه يفتح الباب على فرص متساوية أمام المجتمع.

٣ - إرساء القرار على الموافقة العامة.

٤ - ازدياد الطمأنينة الاقتصادية بدون تضحية بالحرية.

٥ - تحويل تيار يمكن أن يثير بطريقة ما نزاعًا اجتماعيًّا طبقيا، إلى نزاع سياسى فحسب.

وأخيرًا: المبدأ الذى يعتبر كل فرد حاملا فى طيات نفسه قوة مكنونة يجب إعطاؤه الفرصة لإظهارها [الموسوعة البريطانية].

وأهم ما اعتور الديمقراطية الأمريكية من عقبات، وأشدها خطرًا: شراسة الرأسمالية التى استفحلت فى مجتمع القرن التاسع عشر، استفحالا يفوق ما حدث فى غربى أوربا نتيجة للثورة الصناعية - ولعل السمعة السيئة للمجتمع الأمريكى مصدرها الصورة البشعة التى ذاعت فى العالم المتحضر عن مساوئ ذلك المجتمع، وخاصة ضراوة رأس المال، وشركات الاحتكار لأغلب حاجات الشعب.

ومن المفيد لنا أن نستعرض صورة سوداء للمجتمع الرأسمالى فى الولايات المتحدة فى السنوات التى تلت انتهاء الحرب الأهلية، وخاصة فى الربع الأخير فى القرن الماضى، وكيف واجهها المصلحون من رجال السياسة والاجتماع، ومن الكتاب والشعراء والفنانين حيال الهياج والمظاهرات التى قام بها الشعب من الفلاحين والعمال.

وصورة الكشف عن العلل التى تنخر كالسوس فى كيان الديمقراطية، استغرقت حوالى العشرين عامًا من ١٨٩٤ حتى تولى الدكتور وودرو ويلسن رياسة الولايات المتحدة فى ١٩١٣. وقد بدأت بخطيب مدره من أعضاء الحزب الديمقراطى، كان أقواهم كفاحًا، ومع أنه سقط فى كل انتخابات دخلها (لعضوية الكونجرس أو لرياسة الجمهورية) فقد ظل ثلاثين عامًا هو الرائد المفوه، والزعيم المؤيد للحزب الديمقراطى.

اسمه وليم برايان، شاب من ولاية نبراسكا، أخذ يحرض حزبه على الانضمام إلى ما عرف «بالتنظيم الشعبى». لم تر السياسة الأمريكية من قبل شيئًا شبيهًا بما قام به هذا التنظيم من هياج اجتاح السهول ومزارع القطن. وصفه شاهد عيان بأنه كان فى تعصبه لمبادئه شبيهًا بالصليبيين. ينهى أفراده أعمالهم اليومية ثم يتجهون إلى مكان الاجتماع، إينما يكون هذا المكان، شونه أو مدرسة، ليستمع إلى مواطنة من كنساس تطلب من المزارعين «أن ينتجوا غلالا أقل، ويشعلوا نار جهنم على الظالمين... إن وول ستريت (حى الأعمال بنيويورك) هو المتملك للبلاد.. لم تعد الحكومة للشعب ولا هى من صميم الشعب، أو من أجل الشعب. بل هى حكومة وول ستريت، من صميم وول ستريت، ومن أجل وول ستريت. قوانيننا خرجت من نظام يحسن هندام الأوغاد، ويلبس النزاهة والشرف أحقر الأسمال». ويعلن المزارعون: «إن تاريخ الولايات المتحدة فى الثمانية والعشرين عاماً الماضية، هو سلسلة إساءات، وظلم، واعتداء، ولا مثيل لها فى تاريخ العالم. وكل القوانين تهدف إلى غرض واحد، هو إقامة أرستقراطية المال على خرائب ما كان فى الماضى أمريكا الحرة».

كانت الحالة سيئة عام ١٨٩٢، وتزداد سوءًا مدى عامين، ويضرب

عمال مصانع برلمان، وتتجه مسيرة العمال المتعطلين إلى العاصمة، وتنهار أسعار المحاصيل: القطن والغلال، وينضم كثير من أعضاء الحزب الديمقراطى إلى «التنظيم الشعبى».

أثار الشعب قضية التضخم النقدى، فى مقابل الانكماش. وكان المحافظون منحازين إلى جانب الانكماش، والثائرون ينادون بالتحرر النقدى، وضرب السكة الفضية إلى أقصى ممكناتها، بصرف النظر عن أثر ذلك على معيار الذهب. فأى ضرر من معيار الفضة؟ أجابت الرجعية: الدولار الفضى فاقد النزاهة، وهو صديق الفقراء، على حين أن الذهب هو مال الأثرياء، ونقد وول ستريت. وكان برايان هو قائد الحملة ضد الذهب، والانتصار للفضّة، قال: «إذا خرجوا إلى العراء يدافعون عن معيار الذهب، فسنحاربهم بعنف، ووراءنا جموع الشعب المنتج: عمالا ومزارعين، وجوابنا طلبهم لمعيار الذهب: لن تكسبوا على جبين العمل هذا التاج من الشوك، لن تصلبوا البشرية فوق صليب من ذهب».

وهكذا ظل برايان مدى عشرين عامًا تحت أضواء السياسة، بقوامه المعتدل، وشعره الفاحم وعيونه السوداء المتقدة، ولسانه المعسول، وذكائه وبسالته، بالإضافة إلى إيمانه بأن «صوت الشعب من صوت الله». ومع أنه كافح فى معركته الانتخابية وجاب أميريكا طولا وعرضًا مرشحًا للحزب الديمقراطى، فقد فاز عليه مرشح الحزب الجمهورى بمليون صوت.

ولكن الديموقراطيين كانوا فى نهاية المطاف هم الجبهة المنتصرة التى غيرت مسار التاريخ الأميريكى.

تلك كانت حقبة الإصلاح والتقدمية، دخل حومتها السياسيون: برايان والرئيسان تيودور روزفلت وودرو ويلسن. والفلاسفة: وليم

جيمس ورويس وجون ديوى. والاقتصادى الكبير فيبلن، والأدباء والكتاب: وليم، وهاولز، وفرانك نوريس وتيودور درايزر، كلهم يدافعون عن حصون الديموقراطية ويتحدون أعداءها.

فالبلية لم تقتصر على سوء حال الزراع والعمال، ولا على الاقتصاديات وحدها، بل على كل صور المجتمع الأمريكى. ولأن «عهد الحياة» فى هذا المجتمع لم يتحقق، فقد كان المنتظر لمستعمرى العالم الجديد إقامة مجتمع الحرية والمساواة للجميع، ونجح الآباء المنشئون دون شك فى تحويل حلمهم إلى حقيقة.

وهؤلاء أحفادهم رجال تهيأت لهم الفرص لإنشاء جنة على الأرض. ألم يصف السياسى والاقتصادى والفرنسى تورجو مطالع الشعب الأمريكى بأنه «أمل الجنس البشرى»؟.

خاب الأمل، وهذا على الرغم من أن الأمريكان كانوا أيسر حالا من معاصريهم الأوربيين. بيد أن نظرة المصلحين منهم كانت: إنما نحن أسوأ مما كان المتوقع لنا نعم كانت الانجازات المادية فى الصناعة والزراعة والمناجم عظيمة، ولكنك إذا استدرت ببصرك إلى الإنجازات الاجتماعية والثقافية، نزل بك إلى الحضيض الذى تردّت فيه.

هذه لم تكن مجرد أعمال شقية، ولا محاولات من الأقوياء لهدم الديمقراطية فحسب، وإنما جاء ذلك أثرًا من آثار العلم وتطبيقاته فى الصناعة التى سبقت وتقدمت خطوات على العلوم الاجتماعية وعلى الجهاز السياسى. حدث هذا فعلا عندما عجزت الدولة عن التحكم فى القوى التى أطلقتها الصناعة على المجتمع، وكان ذلك صحيحًا فى السلوك الأخلاقى بعد ما انزاحت المسئولية الفردية أمام شركات المساهمة. وفى

الميدان الاجتماعى حالما عجزت تقاليد المجتمع الريفى المتجانس عن تطبيقها على مستلزمات حياة المدن فى مجتمع غير متجانس.

والنمو ذاته أنبت مشاكل عدة، فالمزارع اتسعت وتضخمت أعمالها حتى تعدت حدودها المعهودة، والمهاجرون تجاوزوا القدرة على استيعابهم، ونمت المدن بسرعة لم تواكبها حركة الإسكان، وإنتاج المصانع أكثر من ممكنات الاستهلاك، ودنيا الأعمال تضخمت إلى حد التعجيز عن وعيها وإدارتها، وأثرى بضعة رجال ثراءً فاحشًا وضعهم فى حيرة عما يصنعون بأموالهم المكدسة، ولم يجد المجتمع طريقة لتخفيف أثقالهم.

وما أقل بين المصلحين من يملك القدرة على وعى كل هذا. فلم يروا غير الجوع والظلم وضروب الفساد، ومشاكل الأرض، والعمال، والنساء والأطفال. لهذا تركز هَمّ المصلحين فى إزالة الأحياء المكتظة بالفقراء (صلامز)، وفى تقويم الحياة السياسية، والضرب على أيدى التجمعات الاحتكارية (طراصطس)، وسوء استخدام الثروات الفادحة، وقاوموا تشغيل الغلمان، وسوء معاملة العمال فى المصانع الصغيرة، ودافعوا عن الهنود الحمر باعتبارهم سكان الأرض الأصائل، وعن سود أفريقيا الذين جلبوا رقيقاً وعاشوا عبيدًا للجنس الأبيض، وعن سمر الجزر فى البحر الكريبى. وأداروا عجلة الإصلاح الحكومى بتنظيم الاستفتاء الشعبى، ومنح حق التصويت للنساء، وجعل الانتخابات على درجة واحدة. وانقذوا الغابات المهددة بالزوال تحت معول الإنسان، وحافظوا على مصادر المياه، وعملوا على تجميل المدن. ومن الأمور الظاهرة قيام الجمعيات الخيرية بالمئات، وانتشار الكتب التى تنعى الحال وسوء المال.

وهاجمت الصحف والمجلات شركات الاحتكار من أمثال «ستاندارد

أويل» وشركات اللحوم، وشركات المواصلات بأنواعها داخل المدن وخارجها، وكشفت عن تاريخ الثروات الضخمة وكيف تكونت.

وانصرف الروائيون عن قصص الغرام، واللون المحلى إلى القصص الاجتماعى (درايزر وفرانك توريس)، ونزل الأساتذة عن أبراجهم العاجية ليكافحوا فى سبيل حل المشاكل الاجتماعية (فيبلن ولستروارد)، واكتشف الوعاظ الدينيون المعانى الاجتماعية للإنجيل، وأثاروا ضمائر المصلين بوصف فساد المجتمع، بل وأرهبوهم بالتساؤل، عما يحدث لو نزل المسيح اليوم إلى شيكاجو.

لم يك كل غريبًا على طبع الأمريكى، وهو من أقدر الشعوب على الاعتراف بأخطائه وشجب ذنوبه. لم ينس أبدًا «آباءه المهاجرين» ثاروا على الحيف والتعصب المذهبى، وآثروا النزوح عن وطنهم (بريطانيا)، وأن أبناء هؤلاء فى نيو إنجلاند أشعلوا نار الحرب على الدولة الأم، ولم يلقوا السلاح حتى أجبروا البريطانيين على الجلاء. وهكذا تتكون الأمم الجسور عندما تنصهر بالكفاح فى الداخل والخارج، وتغدو أسماء أبطال الوطنية كواكب سيارة تسطع فى قبة التاريخ: جورج واشنطن، وتوماس جفرسون، وبنيامين فرنكلن والكسندر هاملتون، وصمويل آدمز، والإنجليزى نصير الحريات شرقاً وغرباً: توماس پين.

عن التعليم والجامعات الأمريكية

« وأهم ما يعنينا هو تعليم الشعب ، لأنى شديد الاقتناع بأن الاعتماد على حسن إدراك الشعب ، هو ضمان المحافظة على قسط هام من الحرية » .

الرئيس الثالث للولايات المتحدة :

توماس جفرسون

زرت الجامعات (ومقارها تعرف فى الولايات المتحدة باسم الكامباس) : هارفارد (كمبردج بولاية مسّاتشوستس) ، برنستون (بولاية نيوجيرسى) ، يوتاه (صولت ليك سينى بولاية يوقاه) ، واشنطن (سياتيل بولاية واشنطن) ، كاليفورنيا - بيركلى (سان فرنسسكو بولاية كليفورنيا) ، ومتحف أسميثونيان للعلوم ، وتاريخ المخترعات والإنجازات التكنولوجية بصاحبة دانيال بورستن ، المؤرخ الكبير ، ومدير سابق للمتحف الشامخ بواشنطن د. ك. ، ولم يكن الوقت ليسعفنى والأساتذة المضيفين بأكثر من المرور والدوران بالكامباس مع التركيز على المكتبات ، وهذه فى ضخامتها وتنسيقها ، وتبويب محتوياتها ، وقاعات المطالعة للطلبة ، وأخرى للتخصص والبحث ، وفى جمال بنائها وأثاثها وإضاءتها ، مفخرة من مفاخر الجامعات الأمريكية . وقد كان مضيفى ورائدى بجامعة يوتاه هو صديقى القديم ، وزميلى بجامعة الإسكندرية الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية ، مؤرخ العصور الوسطى . قضينانيفا وساعتين فى قسم

الدراسات الخاصة بالشرق الأوسط عربية وأجنبية . ويشهد الجميع هناك بأنه منشئها ، كما تشهد صورته الزيتية الكبيرة في ردهة المكتبة . وشاهدت الملاعب ، ومساكن الطلبة العزاب والمتزوجين ، ونوادى الاجتماع ، وقاعات الدرس والمحاضرة ، وصعدت إلى أعلى البرج بجامعة كاليفورنيا ببيركلى ، فأشرفت على مبانيها بعامة ، وهى مجتمعة فى إنفساح تحيطها ، وتتخلل بلوكاتها الحدائق ببسطها السندسية ، وأشجارها السامقة .

كنت أتحسر على ضيق ذات اليد بجامعاتنا ، مما أدى إلى القصور فى مستلزمات الحياة الاجتماعية والترفيهية لهم . وأقسى من هذا ما جرى على جامعاتنا - أيًا كانت الأسباب والعلل - من تعثر وتقهقر . ومما حزنت له نفسى مطالعة تقرير لمسئول جامعى كشف لى من المصاعب التى يلاقيها بعض المبعوثين المصريين للالتحاق بكليات ومعاهد بدأت تشكك فى قيمة درجاتهم الجامعية الأساسية ، وتشكو ضعفهم اللغوى ، فتفرض عليهم الاختبارات إعدادًا لقبولهم ، بعد أن كانت جامعات أوربا وأمريكا - حتى عهد غير بعيد - تعترف رأسًا بدرجات الليسانس والبكالوريوس والماجستير ، وتسمح لمبعوثنا بالمضى فى التحضير للدكتوراه .

بالولايات المتحدة ، حسب الإحصاء الرسمى عن عامى ١٩٥٦ - ١٩٥٧ : ١٨٨٦ معهداً للتعليم العالى . ومن هذا العدد ٢٢٨ معهدًا يحمل اسم « جامعة » ويبدو أن ثلث هذا العدد مدارس عليا (كوليج) فحسب . ويكون عدد الجامعات الجديرة بهذا الاسم ١٥٠ جامعة . ويصرف على مجموع معاهد التعليم العالى فى سنة الإحصاء حوالى ٢ مليار ونصف دولار (٢,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠) لا تدخل فيها تكاليف امتداد المبانى ، ولا التكاليف غير التعليمية . وميزانية جامعة تشيكاجو وحدها حوالى ٥٠ مليون دولار .

وأغنى مكاتب الجامعات : هارفارد : ٦ ملايين مجلد وييل : ٥ملايين مجلد .

ولقد أتصور وأنا أنقل هذه الإحصاءات أننى أصبت بعدوى الأرقام فى أمريكا ، علماً بأن الأرقام لا توصلنا إلى شىء هام . والهام فى موضوعنا هو قصة التعليم بأنواعه منذ بدء تكوين الأمة الأمريكية ، وهذه أعجوبة من أعاجيب هذا الشعب الحديث ، الذى بدأ خطاه الحضارية منذ قرنين من الزمان ، بدأ من العدم فوق أرض شاسعة بغاباتها وآجامها وصحاريها وجبالها وأنهارها وبحيراتها . أرض كانت تسكنها قبائل بدائية رحل ، استطاع المهاجرون الأوائل ، ومن لحق بهم من مختلف الأمم أن يقيموا أمة موحدة فيدراليا لم تخفق أجناسها ومللها ونحلها المضى فى تحقيقها . وفى المركب الصعب لم يتوقف التقدم الحضارى الذى أبلغها أسمى المراتب ، وجعل منها الدولة الزراعية الصناعية ، والعلمية الأدبية الفنية ، فى وقت قصير بحساب الأمم .

ونبدى هنا ملحوظة – ليست من محض تفكيرنا – وهى أن دولا حديثة كالبرتغال والنرويج ، أو ألمانيا أو إيطاليا ، تكونت الأمة فيها قبل الدولة بالمعنى الحديث . أما تكوين الولايات المتحدة فقد بدأ بالدولة قبل الأمة .

وهذه واحدة من غرائب استعمار العالم الجديد . فقد تبلورت أمريكا إداريًّا وسياسيًّا قبل أن تحقق وتحصل العناصر التقليدية لبناء القومية . فالقومية لا تكتمل إلا حين يجمعها تاريخ مشترك ، وشعر ، وأغان ، وقصص وأساطير .

فى البدء كان التعليم ، وهو موضوعنا . قال توماس جفرسون الرئيس الثالث فى التاريخ الأمريكى : « وأهم ما يعنينا هو تعليم الشعب ، لأنى قوى الاقتناع بأن الاعتماد على حسن إدراك الشعب ، هو ضمان المحافظة

على قسط هام من الحرية». وأكد جون أدامز الرئيس الثانى «١٧٩٧ - ١٨٠١» ضرورة «تربية كافة الطبقات حتى أحطها وأكثرها عوزًا». بل كان جميع حكام الولايات على قدر كبير من إرادة التبصير بأهمية التعليم. كان حاكم نيويورك مثلا هو منشئ جامعة نيويورك، وحاكم بنسلفانيا عنى بإنشاء مدارس البنات، ومدرسة طبية. واعتنى نوح وبستر (صاحب القاموس الأمريكى الأول) بالتعليم العام، ألف كتب المطالعة والتاريخ ووضع القواميس. والرئيس جفرسون فى الحق كان أهم شخصية من بين «الآباء المنشئين» عناية بالتعليم بدأ بإنشاء مدارس التعليم العام لكل أطفال الولاية وهو مؤسس جامعة فرجينيا، ومكتبة الكونجرس بواشنطن - د. ك. أضخم وأغنى مكتبات العالم.

كانت هارفارد، وبرنستون، ووليام ومارى أقرب إلى الأكاديميات منها إلى الجامعات، ولكن هذا لا ينسينا أنها خرجت جفرسون، وجون أدمز، وماديسون (الرئيس الرابع (١٨٠٩ - ١٨١٧).

التعليم العام لم يدخل فى دور التطور إلا فى ثلاثينات القرن الماضى، حين اهتم الحكام بدعوة خبراء التعليم من سويسرا وألمانيا. وكان فى مقدمة الأمريكان عناية بالتعليم العام هو «هوراس مان» من ولاية ماساتشوستس عين مديراً للتعليم سنة ١٨٣٧، وكان أول من أنشأ مدارس للمعلمين، ووضع تقاريره السنوية تفلسف مكانة هذا التعليم ووظيفته فى الديموقراطية. قال بأن التعليم يجب أن يكون عملية ديناميكية، والتلميذ يتعلم بالرؤية والملاحظة والأداء، أكثر مما يتعلم بالحفظ (ونتبين من هذا بلاغة كلمة «الصّمْ») والمعلم رائد وصديق، لا مجرد عميل تعليم. والطفل له حياته الخاصة وعالمه ينمو عقليًا تبعًا لسرعة استيعابه، وأهمية الرياضة

البدنية تتساوى تربويًا مع الكتب. واضح أن تلك آراء جان جاك روسو، نفذها عمليًا بستالوتسى فى سويسرا، وفرويل فى ألمانيا. وهب الأمريكان لتنفيذها.

ومدارس المراحل الأولى نمت من تسع مدارس فى عصر التبعية البريطانية، إلى أكثر من عشرين فى مطالع القرن الماضى، وواصلت النمو والازدياد. ولكن أغلبها كانت فقيرة فى مصادر تمويلها، وفى مكتباتها. الواضح فى مدرسيها إن إخلاصهم لواجبهم يسبق قدراتهم التربوية. والبرامج تعنى أول ما تعنى بالأخلاق والتربية القومية التى تعمل على شحذ الإحساس بالمسئولية الاجتماعية والوطنية.

تقدم التعليم العالى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى اتجاهات ثلاثة:

أولها: نمو الجامعات التى تنشئها وتتولى أمورها حكومات الولايات، وكان ذلك أكثر ظهورًا فى ولايات الغرب، وخاصة فى أوهايو وميتشيجان.

وثانيها: الاهتمام بإنشاء المدارس العليا للبنات.

وثالثها: التحلل من قيد نظام الكليات الأربع، أساس الجامعات الأوربية التقليدية (كليات الآداب والعلوم والقانون والطب). لأن اتجاه شعب الولايات المتحدة كان من أول أمره، واستمر فى التركيز على متطلبات الديموقراطية الجديدة بإنشاء المعاهد الزراعية والهندسية «وبلغ التحلل ذروته عام ١٨٦٢ عندما قررت الحكومة الفيدرالية (أى المركزية) أن تقطع الولايات الأرض اللازمة لإنشاء معاهد عليا للزراعة والهندسة.

يجب لفهم مقاصد التربية والتعليم فى الجمهورية الجديدة التنبيه إلى أن «الآباء المنشئين» كانوا مؤمنين بأنه لا نجاح للديموقراطية، ولا حياة

للحرية، بدون نشر التربية والتعليم على أوسع نطاق. فماذا يرجى من الانتخاب العام إذا كانت أغلبية الناخبين لا تفقه معنى الحياة الديمقراطية، بله قواعدها.

دعوة مستجابة فيها أرجو
فصل انتقالى (١٩٧٧)

تقدرون وتضحك الأقدار. كنا نعد لقضاء أسبوعين حول «شم النسيم» بالإسكندرية، فإذا بى أتلقى إشارة من الأستاذ عبد المنعم الصاوى، وزير الثقافة والإعلام، تدعونى إلى حضور افتتاح معرض توت عنخ آمون بمدينة شيكاغو، تلبية لدعوة جامعتها القائمة مع هيئات أخرى بتنظيم هذا الحدث الفنى الكبير، فى أعظم مدائن الولايات المتحدة بعد نيويورك. أنعم وأكرم بالدعوة، وفجائيتها. أثارت فى مخبآت نفسى «دعوة إلى الرحيل» للشاعر الفرنسى بودلير لحنها الموسيقى دوبارك:
«يا بنيتى، ياأختى: احلمى بحلاوة الحياة هناك سويًّا، بالبلاد التى هى صورة منك:
«هناك الترتيب، والترف والجمال، وهناك الهدوء، ومباهج الحياة».

تغلبت شيكاغو، ونيوأورلينز، ونيويورك على الإسكندرية، فمن الطابق السادس فى هذه الأخيرة إلى الطابق الثالث والعشرين بفندق «ريتز - كارلتون» ومن عروس بحرنا، إلى عروس بحيرة ميتشجان، ثم إلى دلتا المسيسبى.

عدت بعد رحلة الأسبوعين مليئًا بانفعالات الفن، فن جدودنا الأقدمين، وانفعالات التجدد رؤية واتصالا بكرام الداعين.

تذكرت كل هذا لأسجله على هذه الصفحات، ولكننا فى شهر مايو من سنة ١٩٧٧، ختام العام العشرين من حياة «البرنامج الإذاعى الثانى» وللقدر أياد حانية، فقد أعادنى إلى صديق العمر توفيق الحكيم لمواساته فيما حل به من رحيل رفيقة حياته الغالية.

نسيت تمامًا فى أحزانى، ختام العام العشرين من حياة «البرنامج الثانى» (١٩٥٧ - ١٩٧٧) العمل الجماعى الصامد للأهواء والأعاصير. فقد ولد متهماً بأنه «جمعية المنتفعين» أى والله، وعاش فقيراً إلى ربه الرحمن الرحيم. تحمل فى صبر وإيمان أن يوصف ببرنامج النصف فى المائة. أنعم وأكرم يا سيدى بهذا النصف فى المائة الذى يحصى عدد آلافه بنحو عشرين ألف مستمع لا غير من أجل العاصمة وأرباضها، والبلاد القريبة، لا يسمع فى الدلتا ولا فى الصعيد، ولا فى الإسكندرية، العاصمة الثانية مهضومة الحقوق، وإذا سمع فلماما، مع مقاومة صغير عارم أنزله الشيطان من بين شواظ غضبه.

وإذا بالسيدة الأربية، فوزية المولد رئيسة البرنامج الثانى تدعونى فى التاسع من هذا الشهر إلى المشاركة فى حفل أسرة ذلك البرنامج الشاب.

ولقد جلسنا صباح يومى هذا (العاشر من مايو) عشرة أشخاص حول الميكروفون أو تحت مظلتيه، نستمع إلى ثالثة رؤساء البرنامج الثانى: سعد لبيب، فؤاد كامل عبد العزيز، فوزية المولد تتحدث إلينا عن تلك الظاهرة العجيبة فى إذاعتنا: الباب المتفتح لكل أبواب الثقافة. وقد نعى الأستاذ يحيى حقى خطأ وصف الثقافة بالرفيعة شعارًا لمجلة

« المجلة » . ووافقته تمامًا على أن الثقافة ظاهرة حضارية ترتفع بإنسانية الإنسان عن كل أثر لبهيميته . وإذا كنا قد أخطأنا فى وصف المرحومة مجلتنا ، بل خريدتنا العذراء التى قضت فى شبابها مقصوفة الرقبة ، فقد عادت وزارة الثقافة إلى وصف جديد للثقافة ، فهى « الجماهيرية » ، فى معنى الهبوط بها إلى مصاف الجماهير . وليست ثقافة بأية حال تلك التى تنزل إلى الجماهير ، لأنها لا تعرف غير مهمة واحدة ؟ « الارتفاع بالجماهير » . وبهذا تكون « الثقافة الجماهيرية » تلك « بديل ثقافة » ، « إرزاتس » .

وهذه قائمة بأسماء العشرة الكرام الذين أضاءوا شعلة العام الأول بعد العشرين لبرنامجنا الثقافى « الحيلة » : الأساتذة الأجلاء : الدكتور زكى نجيب محمود ، والدكتورة سهير القلماوى ، ويحيى حقى ، وعبد الحميد الحديدى ، الضيوف والأصدقاء الحميمون للمحتفى بعامه العشرين .

ثم إليك قائمة بأسماء الجيل الثانى من أبطاله العاملين : السيدة عفاف المولد ، مراقبة العلوم . والسيدة عفاف حسين ، مراقبة الموسيقى ، والسادة : الشريف خاطر للدراما ، ومحمد على الشرقاوى للبرامج الخاصة ، وشوقى فهيم للفنون ، وكمال حمدى للآداب (كبير المذيعين) .

ولقد أبدى الجميع أسفهم لغياب الأستاذ الكبير فتحى رضوان ، أول وزير للإرشاد القومى ، عاد إلى تلك الوزارة ، فلم يغادرها إلا وقد تحولت إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومى . ولغياب الروائى المبدع الأستاذ نجيب محفوظ .

إذ يبدو أن خصاماً قائماً بين تليفونات مصر الجديدة والعجوزة ، وبين تليفونات الجيزة ، ودار الإذاعة والتليفزيون . فقد فشلت محاولاتى من

الجيزة ، ومحاولات السيدة فوزية المولد من مكتبها بالدور السادس .
وضح من نقاش الحاضرين ، فى الندوة الاحتفالية . أن إنشاء البرنامج الثانى عمل جماعى يعتبر نموذجًا يحتذى . لم يكن نزوة ، ولا مجرد خاطر طارئ ، بل كان إنجازًا اجتمعت له عناصر النجاح . فقد تحول الوزير فتحى رضوان من فكرة « الدعاية » متخفية باسم « الإرشاد » إلى فكرة الثقافة ، حين قرر إنشاء « مصلحة الفنون » واسند رياستها إلى الأستاذ يحيى حقى يعاونه الأستاذ نجيب محفوظ ، والمرحوم عبد الرحمن صدقى .

كانت الفكرة موضوع لقائنا . فهو لقاء طبيعى وأصيل ، لأننا كنا فى مجموعنا لا نكره شيئًا كرهنا لدعاية الطبل الأجوف ، بدق وحده كالمجنون .

بينما مجموع الفكر والفن والعلم والأدب ، ممارسة وعملا ، خلقًا ونقدًا ، هو الذى يدعو لأهله وبلاده الجديرة بتاريخها التالد ، وتطورها الطريف .
ثم كانت واقعة تأميم قناة السويس ، وعودتها إلى أهلها انتصارًا باهرًا على غلاة الاستعمار البائد الكريه .

وليكون معنى الثقافة « واضحًا للأفهام ، خالصًا مميزًا عن السياسة » نعترف بأن نموذج « البرنامج الثانى » كان « البرنامج الثالث » فى بريطانيا ، إحدى الدول التى شاركت فى الاعتداء على مصر عام ١٩٥٦ . لأن شئون الفكر والفن والعلم والأدب أرفع من أن ينالها نعى الناعين . فإن كان المستمر إيدن ، والمسيوجى موليه يمثلان « السياسة » ، فإن أهل الثقافة فى البلدين العظيمين كثر ، انحازوا إلى جانب الحق والعدل ، بل وجد حتى فى ميدان السياسة عظماء من الشرق ، ومن أقصى الغرب نعوا على الدولتين الكبيرتين الشطط والبجاحة . فأعادوا الحق إلى نصابه .

لا عجب إذن أن يجيء عطاء ١٩٥٦ - ١٩٥٧ بتأسيس الفن الشعبي وتصنيفه وإعادة المسرح المصرى سيرته الأولى، وإنشاء الأوركسترا السمفونى والكورال، والشروع فى الإعداد لأكاديمية الفنون بمعاهدها الخمسة. وكان عام ١٩٥٧ إلى هذا هو عام «المجلة» وعام «البرنامج الثانى» ظهيرًا، وداعية إلى الإتقان والتعميق والجودة وقد قيض لهذين العملين العظيمين، من الوسط الإذاعى والأوساط الأدبية والفنية والعلمية أهله، وضيوفه، أن أقيما صرحًا لحرية الفكر بأصدق معانيها.

فإذا كنا نحتفل بمضى عشرين عامًا على إنشاء «البرنامج الثانى» فإننا نود التذكير بأن ثورة ٥٢ بلغت فى ذلك التاريخ ذروتها. وإذا بلغ العمل الاجتماعى الذروة فليس أمامه إلا طريق السلامة فى الاحتفاظ بمستواه، أو طريق «الصدامة» بالنكسة والنكوص.

والتاريخ وحده سوف يؤكد لنا معنى ليس جديدًا فى تاريخنا منذ العتاقة. وهو قدرة هذا البلد ومقدراته، فى النهوض من العثار والكبوة عندما يضل الطريق، فيهوى بنا إلى حضيض اليأس. وها نحن نحتفل اليوم وغدًا وما بعد الغد بثورة ١٥ مايو ١٩٧١ تصحيحًا لمسار ثورة ١٩٥٢. وأحسبنى لا أغالى إذ أرانا مرة أخرى فى الطريق الذى أخرج منذ عشرين عاماً تلك المنشآت الغالية. وحتى إن كانت تلك الأعمال قد تمت فى فترة لم تتمتع بكامل الحرية، فمن باب أولى يحق لى تصور نهضة اليوم، عندما تغدق علينا شمس الحرية بكامل أشعتها، ويجلو كابوس الاحتلال عن صدورنا، وأرضنا، تعنى استئناف السير بمصر فى مدارج حضارة بدأتها فى النصف الثانى من القرن الماضى، واستأنفتها بعد ثورة ١٩١٩، ثم نفضت عنها فى ثورة ١٩٥٢ الملك العابث، وعرشه المتهاوى. وحققت ثورة

التصحيح فى مايو ١٩٧١ القضاء على الطواغيث المخربة، وبهذا تحقق العبور من ظلام الهزيمة إلى نور النصر فى أكتوبر - ١٠ رمضان المجيد.

الحق أنى أكتب هذا المقال دعوة للقراء أن يستمعوا إلى «البرنامج الثانى» فى الندوة التى سجلتها المجموعة الصادقة فى يوم ١٠ مايو، احتفالا بعيده العشرينى وسيدرك من لم يتمرسوا طوال هذه السنين بطريقته وخط سيره، أن البرنامج الثانى قمين بأن يسمى «مجمع الثقافة».

فما أكثر ما سأل السائلون عن معنى «الثقافة» وكنت أنهى إجابتى بأن «البرنامج الثانى» هو التعريف العملى بالثقافة، وذلك بعد أن أوضح للسائلين أن الثقافة ليست علماً ولا تخصصًا، ولا حرفة. فلكل إنسان دوره فى الحياة، أيًّا كان هذا الدور، ومهنته أيًّا كانت تلك المهنة. إنما الثقافة هى إدراك أعلى لعلاقات المعارف العامة بعضها ببعض، عن بعد أو قرب. وتحقيقها يجىء نتيجة تفتح الذهن إلى هذا الإدراك، وذلك بمتابعة الاطلاع والوعى بكافة ما يوصف فى حياة الإنسان باللاماديات. فالتكنولوجيا مادة، ولكن إدراك أصولها عن طريق العلم البحت يخرج بها عن المادية، إلى مجال الفكر الخالص.

وإنها لفرصة ثمينة لمن يتابع البرنامج الثانى ساعة أو بعض ساعة كل ليلة (وهأنذا أنسخ هذا المقال على صوت «غادة السمان» تناقش موضوع الأدب النسائى، فأوقف الكتابة لأستمع إلى جرسها اللطيف)، أن يجتمع له فى صعيد واحد، وبث موجة إذاعية متواضعة، أشتات من المعرفة فى الاقتصاد، أو التاريخ، ومن الفن إلى الأدب القصصى الطويل والقصير، والأدب التمثيلى، والموسيقى، والنحت والتصوير، وقد يسأل سائل هنا: وما شأن إذاعة مسموعة بفن مرئى: فأجيبه: استمع إلى ندوة الفنون

التشكيلية - وكانت حتى سفرى إلى أمريكا تقام فى ليل الجمعة ، وسترى أن أهل المهنة يجتمعون فيها ليناقشوا فنهم الذى تراه معروضًا فى زمان أو مكان قريب منك إن كنت فى القاهرة ، أو الإسكندرية . ولو أن قدرات البرنامج الثانى المادية أقوى مما هى عليه لاستطاع العاملون فيه أن يتابعوا نشاط الأقاليم الثقافى ، بما يحيى مواتها ، ويشجع فنانيها وكتابها .

والفنانون التشكيليون فى ندوتهم الأسبوعية لا يعلنون عن فنهم ، ولا هم يقومون بدور تعليمى أو تربوى . إنما هم يمضون فى حوار بلغة المهنة ، خلقتها تجربتهم الحية . وبذلك تحس إحساسًا أمضى وأقوى من استماعك إلى من يحاضرك مباشرة بلغة مفتعلة فى أناقتها .

ثم من لى بذلك المستمع المستديم للبرنامج الثانى فى ليل الثلاثاء ، وقد عرف عن طريقه أدب المسرح عند القدماء والمحدثين ، شرقًا وغربًا .

وكلما اتسعت ميزانية البرنامج ، وتقوت موجته ، (وحبذا أن تنال قسطاً من الأمواج القصيرة التى تضيع فى فيافى أفريقيا) ، استطاع أن يتوسع فى مواده الأخبارية خاصة بالعلم والفن والأدب والاقتصاد والتاريخ .

واختم بتكرار رجائى إلى القارئ أن يستمع إلى ما سجلته الندوة الاحتفالية ببلوغ البرنامج الثانى سن العشرين . إنه يفتح لك باباً واسعاً ، وطريقاً واضح السمات ، إلى الثقافة معنى ومبنى .

وادى الملوك على ضفاف متشيجان

كنت أتهيأ فى الصباح الباكر لكتابة رحلتى الثانية إلى الولايات المتحدة، مدعوًا إلى حفلات افتتاح معرض توت عنخ أمون بمدينة شيكاغو على ضفاف بحيرة متشيجان، وإذا بمقال يعترضنى فى صحيفة الأخبار يتحدث عن الأباطيل، وعن الديمقراطية المنتهية إلى غوغائية فوضوية.

إلى أين يسوقنا هؤلاء الأذكياء الذين تلقوا العلم أصدقه وأكرمه، وعرفوا طريقه السوى إلى المعرفة، وأدركوا أن العقل هو الجوهر الفرد الذى وهبه لآدم وحواء، الخالق عز وجل «علم آدم الأسماء، وعلم الإنسان مالم يعلم، بل أمر الإنسان بطلب العلم «وقل ربى زدنى علماً» والعلم وسائله الحواس والاستقراء، والتحليل العقلى، كما أن وسائله التلقى بالقلب، والاستمداد من الله: فالله هو المستمد النهائى لجميع الحقائق، وذلك هو العلم اللدنى الإشراقى. ولهذا كانت العلاقة وثيقة بين العلم والتقوى، ويمكن أن أضيف إلى كلام الدكتور مصطفى محمود صاحب هذا الكلام: إن العلم الصادق هو التقوى. والعلم الكاذب لا وجود

له ، لأن اسمه ، ووصفه بحق هو التدجيل ، والقنزحة ، والتدليس .

ولقد كنت أحسب أن كلام الدكتور محمود لا يؤدى إلى التعارض بين ما يتطلبه للمواطن الصالح ، وبين ما نقتضيه من هذا المواطن لبلده الناهض . فهل من بأس وعثرة فى الطريق !.

البأس كل البأس فى أن يقلب الكاتب هذه الحقائق السامية ، وهى هدف العلم الذى نسعى إليه جميعًا ، ويسعى إلى توصيفها بما يجعلها فى رأيه كفرًا وإلحادًا .

وهذا مصدر الخطر فى إشاعة الشك والاختلاط الذهنى ، والخيال بين الشباب الذى يرد العلم السليم : قليلا منه أو كثيرًا ، عندما يتلقى بقلب واجف عزاءً على أيدى أولئك (الصلاح) المصلحين : بآية من هنا : وحديث من هناك !.

لن أناقش الكاتب العلامة صاحب القلم الفياض ، وسيد الاستدلال والتحصيل العقلانى ، متحدًا فى روحه الصافية مع العلم اللدنى الإشراقى . فإن إعجابى بانفساح عقله ، وقوة حجته ، يشعرنى بالعجز عن مواجهته ، وقد تلقيت من مقاله فى (الأخبـار) بعنوان (لا تعلموا شبابنا الأباطيل) صدمة عنيفة يجب أن أخلص منها ، قبل استئناف ما أنا بسبيله فى هذا الفصل .

عودة إلى العالم الجديد

إن معرفتى بحقائق الولايات المتحدة الواسعة علماً وعملا، جاءت متأخرة جداً. إذ كانت رحلتى الأولى إليها بعد أن اجتزت سبعين عاماً من عمرى. وشاءت الصدفة أن أعود من تلك الرحلة شديد الإعجاب بما أدت تلك البلاد وتؤدى للحضارة ومقوماتها فى مدى مائتى عام من حياة بدأتها بالأباء المهاجرين وقاية لأنفسهم من اضطهاد دينى فى بلادهم. نزلوا فى أجمة وإحراج، قاموا بإصلاحها وزراعتها ما استطاعوا، وأخفقت زراعتهم فى العام الأول ومات منهم من العجزة والأطفال كثير. ولكنهم انتهوا هم وأحفاد أحفادهم من بعدهم، والمهاجرون إلى العالم الجديد من العالم القديم، فى قرنين من الزمان بالوقوف فى صدارة العالم علماً وعملا، ودفاعاً عن الديمقراطية، وبعداً بها عن مغامرات طلاب الحكم الشمولى، وقد عرف الناس من قبل ومن بعد مصير الدكتاتوريات وزعمائها الأوحدين، وما نزل بشعوبهم من ظلم واعتداء وضياع وخراب. أتاحت لى رحلتى الثانية توكيد هذا الإعجاب عندما شاهدت الاهتمام الإنسانى العميق بمعرض توت عنخ آمون، الذى أقيم فى واشنطن، ونيويورك، وشيكاجو وسيفتتح فى غيرها من مدائن الديمقراطية الأمريكية، رمزاً لصداقة عادت لصفائها بيننا وبين أهل تلك البلاد، واشتراكاً منا فى الاحتفالات بمضى مائتى عام على ثورة الولايات المتحدة فى وجه المستعمر، وإعلان الاستقلال، ووضع دستورها القائم بنصه إلى اليوم، مصحوباً بإضافات وتعديلات ألحقت به منذ حياته الأولى.

وفى ظنى أن زوار الأقصر ملمون بأمر البيت العتيد القائم على الضفة، المعروف «شيكاجو هاوس» وهو امتداد مصرى لمعهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاجو، ثانية المدن الكبرى الأمريكية.

والكثير منا يعرف مؤلفات العلامة الأثرى والمؤرخ جيمس بريستد، كما عرف الشباب، والتفوا بتلميذه الكبير، العلامة الدكتور جون ويلسن، وطالعوا بعض كتبه، أو ترجمتها العربية (للمرحوم الدكتور فخرى). وتحدثت هنا مؤخرًا، تأبينًا له، وقد رحل هنا فى أوائل هذا العام.

كان الاثنان من أهل شيكاجو، كبرى مدن ولاية اللينوى. بل كان أولهم واضع اسم أمريكا ضمن الشعوب المتنورة التى عنيت بحضارة المصريين القدامى. وعمل كلاهما أستاذاً فى جامعة مدينتهما، وتعرفنا عليهما فى مصر، وأشرت فى بعض مقالاتى وفى كتاب من كتبى إلى أثر بريستد على تكوينى الثقافى.

حرصت جامعة شيكاجو، بالاشتراك مع من أعانوا فى إقامة المعرض، على دعوة أربعة من المصريين لحضور افتتاح معرض توت عنخ آمون، واختارت وزارة الثقافة الضيوف الأربعة: الأثرى المؤرخ النابغة الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح، والأثرى النابه الدكتور على محمد حسن، والأستاذ العلامة الدكتور مجدى مراد وهبة، وكاتب هذه السطور.

وأتاحت لى زيارة شيكاجو، وجامعتها، ومعرض الملك توت «كما يسميه أهل المدينة ائتناسًا به» ثم زيارة نيواورليان «نواورلينز فى لغتهم» التى تستعد لإقامة المعرض ذاته فى سبتمبر القادم، أن اطلع على أسلوب إعداد الأهلين بالمحاضرات، والمذكرات، والنشرات المصورة لأشهر قبل

حلول يوم الافتتاح، وفى خلاله. وهأنذا أنزل إلى عروس دلتا المسيسيبى فى إبريل لأجد متحفها للفنون الجميلة يتأهب للمعرض قبل افتتاحه بأربعة أشهر. والتقيت بالسيدات والآنسات المتطوعات منكبات فى المساعدة بكل ما يطلب منهن. والمدينة الساحرة تستعير بعض الآثار المصرية من متحف بوسطن، لتقيم معرضًا صغيرًا يزوره طلاب المدارس بصحبة معلميهم ومعلماتهم ليتعرفوا عمليًا على حضارة مصر القديمة التى يدرسونها فى كتبهم، حتى فى المراحل الابتدائية.

احتفل بافتتاح معرض شيكاجو فى ثلاثة أيام: للرسميين وعلية القوم، ورجال العلم والأدب والفن، وإذا بالساحة الفسيحة أمام بناء متحف التاريخ الطبيعى، تحشد فى اليوم الثالث بأهل المدينة والوافدين عليها يقبلون على الزيارة، ويصعدون الدرج الواسع لينتظروا فى ترتيبهم فتح الباب، والولوج إلى قاعات التاريخ الطبيعى حيث يمكنهم تسلية انتظار دورهم للسماح لهم بالدخول طوفًا إثر طوف، إلى القاعات التى استقبلت آثار الملك الشاب، يشاهدونها فى هدوء، دون عجلة أو تلبث.

وأشهد لمن قاموا بعرض كنوز توت غنخ آمون فى شيكاجو، بأنهم جمعوا بين العلم والتجربة والذوق الفنى، مدركين أهمية إمداد المعروضات بالشروح المكتوبة، بل والمسموعة من خلال ساعات تأخذ بيد الزائر من فاترينة، إلى نصب وتحاضره عن محتوياتها بمأثور الكلام.

وكانت جامعة شيكاجو فى مقرها - ولها متحف جامع لعدد من الآثار الهامة للعالم القديم ومصر فى مقدمته - قد أعدت معرضًا إضافيًا إلى معرض توت عنخ آمون، ودعت كبار الأثريين والمؤرخين من العالمين القديم والجديد لسلسلة محاضرات عن آثار مصر بدأت قبل افتتاح المعرض

الكبير بأشهر، وهى متواصلة فى خلال إقامته، وقد قبض لى أن أحضر محاضرة أستاذ الآثار بجامعة لندن يحاضرنا عن الاكتشاف الجديد بسقارة، وهو معبد جنائزى لهورن محب، غير المدفون هناك. فقد تولى الملك كآخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، ودفن فى وادى الملوك.

ولقد عشت طالباً فى عصر اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وكان حدثًا علميًا، ومصدر غضبات مضرية من كبار الإنجليز الذين لم يسمح لهم بزيارة المقبرة، وغضبة مصرية من حكومة البلاد، حتى زار الاكتشاف الملك فؤاد. وغضبة ساخرة من المستر «خالف تعرف»، وهو الكاتب الذى لا حاجة له إلى السلوك الدعائى، فهو أشهر من «علم فى رأسه نار» نادى برناردشو بأن فن توت عنخ آمون يتسم بالسوقية التى تلعلط فى إبريزة وهّاجة وفيروزةٍ، مثل غنية الحرب التى تتحلى بما يحولها إلى فترينة صائغ، وأضاف شو إلى هذا تنديده بهبوط الذوق العام فى العالم، مستندًا إلى الاهتمام الطفولى بتلك الشخاليل.

وانتهى الأمر بغضبة فرعونية على ممول الحفائر التى نبشت قبر الفرعون الصغير – فيما يرى مخرفو العالم – حين مات اللورد كارنارفون بلدغ بعوضة تطن بالهيروغليني. وحمل جثمان اللورد، بليل، إلى مدرسة الطب المصرية، حيث أخفاها أستاذنا «ديرى» فى مشرحته الخاصة الملحقة بمكتبه، وحمل المفاتيح. وحاولنا رؤية ما بداخلها من ثقب الباب، فلم نر غير جثمان ملفوف.

اقتصرت معرفتى بكنوز توت عنخ آمون فى مطالع العشرينات بقراءة ما كان ينشر عنها، ومشاهدة صور أكثرها فى مجلة لندنية مصورة، ربما كانت «الجرافيك» أو (الالستريند لندن نيوز) وسافرت بعد ذلك عضوًا بالبعثة إلى باريس.

وعندما عدت من البعثة إلى مصر ، هرولت إلى المتحف المصرى لأرى الآثار التى أثارت تلك الضجة . وأمام بهو العرض بالدور العلوى تهكمت فى نفسى على برناردشو ، وما دمغ به كنوز الملك توت . لأننا فى الحق إذا أغضينا عن بذخها ، اكتشفنا صورة جد صادقة ، نموذجًا لحضارة لامعة .

هذا عاد إلى ذاكرتى وأنا أشهد جماهير شيكاجو تدخل طفقا ، وتفغر أفواهها ، دهشة شعب عمره مائتا عام من آثار حضارة ألفية فى وادى العجائب بصعيد مصر . وكان أهم مالفت نظرى - مادمت أعرف كل القطع المعروضة - عناية العارضين بوضع صور فوتوغرافية مكبرة بطول وعرض الحيطان ، لداخل المقبرة ، وتابوت الملك وناووسه ، وغرفة الكنز بكراكيبها الغالية فى الوضع الذى وجدت به . وهى الصورة التى نشر بعضها مكتشف المقبرة هوارد كارتر فى كتابه يؤرخ للبحث والتنقيب والاكتشاف الهام لمقبرة لم تمسسها يد اللصوص فى الأغلب ، إلا مرة واحدة فى العصر القديم .

وأحب أن استعيد ذكرى زيارتنا لعالم الآثار المصرية ، هيوز ، وهو فى سرير المرض بمستشفى الجامعة . صاحب الفضل الكبير فى مطالعة النصوص الديموطيقية ، وقد ظل مديرًا . « لبيت شيكاجو » الأقصر سنين طوالا ، وتتلمذ عليه الجيل الحاضر من شباب الأثريين الأمريكان . وتمنينا له الشفاء العاجل .

وعلى الرغم من أيامنا السعيدة جدًّا بما لاقيناه جميعًا من حفاوة بتاريخنا الأمجد فى الجامعة الكبيرة ، ولدى أهل المدينة الساحرة التى خرج منها معماريو « ناطحات السحاب » الأوائل ، فكانت عمائرهم الوحيدة التى يبهرك مظهرها ، دون أن يؤذى إحساسك الفنى ، ذلك لأن تلك الناطحات

على شاطئ بحيرة متشيجان لا تمثل النشاز المعمارى الذى تظهر به فى نيويورك ، أقول على الرغم من سعادتى ، كان شعورى العام عند خلوتى بنفسى مشوبًا بحزن كظيم ، وهو قياس ما أراه فى تلك البلاد التى يبهرك ثراؤها ، ونشاطها المحموم ، ونظامها – هذه البلاد عندى أقوى البلاد قدرة على استخدام الثروة ، بعد استجلابها بالجهد والعرق والكفاح من قاع الفقر ، ثم رد بعض هذا الإثراء للنفع العام – أقول : قياس ذلك بما حدث فى مصر ، التى كانت فى طريقها السليم إلى الحضارة العالمية بحق مساهمتها التاريخية فيها ثلاث مرات ، من اختلاط الأمور عليها فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين ، وتشتيت شبابها بشتى الادعاءات والدعوات والدعايات .

وكان هذا الأصل فيما جاء بصدر المقال .

مدينة لها تاريخ فى صنف من الموسيقى

لو أنى من هواة « الراجتايم والجاز ، والبلوز ، والسوينج ، واليوجى - ووجى » لكان التفسير مقبولا أن يقع اختيارى على مدينة أورليان الجديدة (نيواورلينز) ، ميناء ولاية لويزيانا (عاصمتها باتون روج) ، وولايات الجنوب الشرقى . أييمم شطرها بعد انتهاء ضيافة جامعة شيكاجو لنا .

وفرق بين أن تكلف بهذه الموسيقى الذائعة الصيت فى أركان الدنيا ، وبين أن يدفعك حب الاستطلاع إلى الإحاطة بمصادرها ، وبِسِرٍ جاذبيتها ، ولشباب العالم خاصة ، من البنين والبنات ، حتى فى بلادنا التى تعشق مطربيها ، ألا كم سمعت الآباء هنا ، وفى الخارج ، من عشاق الموسيقى الكلاسيك ، يتعجبون من تعلق أولادهم بتلك الموسيقى الصاخبة المحمومة ، دون غيرها .

ولعل شبابنا يعلم بأن منبت موسيقى « الجاز» هو مدينة أورليان الجديدة . وهذه قصة طويلة أرجو أن أوفق فى سردها بإيجاز ، لا سيما وأن سرانجذابى إلى مدينة الجنوب الشرقى الأمريكى ، الواقعة على خط ٣٠ درجة شمال خط الاستواء ، أى على خط العرض نفسه الذى تقع عليه القاهرة ، هو من بقايا الرومانتيكية التى لم أنجح تماماً فى حبسها بقمقم : فقد كانت لويزيانا مستعمرة فرنسية ، أهلها يعرفون « بالكربول » ، إذ كانوا فرنسيين خلصاً ، ولدوا بمستعمرات العالم الجديد الاستوائية ، باعها نابليون القنصل الأول لجمهورية فرنسا عام ١٨٠٣ إلى الولايات المتحدة .

وأذكر يوم نزلت بمدارس فى الهند ضيفًا على زميلى مدير مباحث الأسماك، عام ١٩٣٤ وزوجته الإنجليزية أننى كنت هناك على مقربة من مستعمرة فرنسية بالهند اسمها «يونديشيرى»، فأستاذنت مضيفى أن أفرك كعبى إليها، فقام العلامة الهندى (وقرينته من أصل تبشيرى)، فى وجهى رافضين قسرًا بأن أقوم بهذه الزيارة. وفهمت من تزمتهما أن «بونديشيرى» كالفراغ والجدة، فلم أشاهد المستعمرة الفرنسية، حماية لى من «مفسدة المرء أى مفسدة»!!.

«موسيقى الجاز» تحظى فى أصلها وفصلها بتعبير الشعب الأسمر عن حنينه إلى وطنه النائى فى أواسط أفريقيا، غاباتها وأدغالها، وقد اختطف أفراده خطفاً بواسطة النخاسة، وأرسلوا قيد الأصفاد والسلاسل، فى قاع سفن إنجليزية أو هولندية ليباعوا عبيدًا، يعملون فى حقول ولايات الجنوب. ومن أوائل الكتب الإنجليزية التى قرأت فى مراهقتى كتاب مسز بيتشر - ستو «كوخ العم توم». كما أن مارك توين من أحب الكتاب الأميريكان إلى نفسى، لانفتاحه، وصراحته، وسخريته فى أسلوب من السهل الممتنع. وأول ما عرفت المسيسبى - خارج الجغرافيا - كان فى كتاب له هو: «فوق مياه المسيسبى فى سالف العصر والأوان». كما قرأت له «مغامرات توم سوبر» و «مغامرات هاكلبيرى فن»، وعرفت الكثير عن مجتمعات الجنوبيين فى كتابات القصاص الأميريكى العظيم، وليام فوكنر.

وموسيقى «الجاز» على الرغم من أصلها الإفريقى، فقد تبناها شعب الولايات المتحدة، وكانت فرق «الجاز» من السود حافزًا ومعلمًا للبيض فى تكوين فرقهم. ويفخر الأميريكان بأن الموسيقى التى يعتبرونها كفنّ

خاص بمناخهم، ومدائنهم، وإحساسهم الاجتماعي، هي «الجاز».

ونتيجة كل ذلك إحساس دفين بأن جنوب الولايات المتحدة وأواسطها واقعة تحت سحر نهرها الكبير، الموصوف «بأول مان ريفر» («سيدها العزيز النهر» في لهجة الأميريكان السمر).

أما أن معرض «توت عنخ آمون» سوف ينتقل من شيكاجو إلى أورليان الجديدة، فلم أعرف بخبره إلا بعد بدء الاحتفالات بافتتاح المعرض بمتحف التاريخ الطبيعي في ثاني مدائن الولايات المتحدة، بعد نيويورك. ثم قابلت في شيكاجو السيدة القائمة بالاستعداد للمعرض بمدينة أورليان الجديدة في متحفها للفنون الجميلة.

هذه هي الدوافع مجتمعة التي حفزتني على السفر إلى الجنوب. وإذا انصرف الكلام إلى أورليان الجديدة، فلا معدى عن البدء بحكاية موسيقى «الجاز».

قام الرئيس إبراهام لنكولن ينادي بتحرير «العبيد» مستندًا إلى الدستور الأميريكي. وكان من أشد الرجال ثباتًا على مبادئه المثالية والعملية. فانتهى الأمر إلى إثارة حرب أهلية شعواء بين ولايات الشمال، ويعرفون «باليانكي» وولايات الجنوب. وراح لنكولن ضحية حفاظه على مبادئه، على وحدة الولايات الأميريكية، غداة انتصار جيش الشمال على الانفصاليين، وسحق جيشهم الذي قام على البغضاء الجنسية، والمصالح الذاتية ليقاوم «تحرير العبيد».

تحرر السود، فانفصلوا عن أسيادهم، وبدءوا السعي في مناكب الحرية بمدينة أورليان الجديدة بسبب استعدادها على تقبل الأفريقيين، وكان أهلها «الكربول» قد اعتادوا رؤية بعض السود في أيام الآحاد يغنون ويرقصون

فى ساحات مدينتهم على صوت الطبل . ومن هذا إلى تقبل موسيقى حسية جسدية ، طليقة ، بلا نظام ، سبب عجيب هو أن أورليان الجديدة كانت المدينة الوحيدة فى الولايات المتحدة التى كانت الدعارة مباحة فيها بحكم القانون (وقد لا يعرف الكثيرون أنها المدينة الوحيدة هناك التى تطبق القانون المدنى الفرنسى إلى اليوم) . وبعد عام ١٨٩٧ بدأ حصار مزاولة هذه المهنة فى حى من المدينة عرف باسم المحافظ الذى قضى بهذا الحصار ، فهو حى « ستوريفيل » . فإذا كان هذا الحى منبت الرذيلة ، فقد كان كذلك منبت موسيقى « الجاز » .

لأن العبيد المحررين التمسوا وسيلة للعيش فى أغانيهم على صوت « البانجو » ، أو « الجيتار » ولقد وجدوا فى أورليان الجديدة مجالا مستعدًا لقبولهم على الرحب . ثم اكتشف السود أن المدينة غنية بآلات موسيقى النفخ النحاسية والخشبية . لأنها بلد اختص بهذه الصناعة من قديم . بالإضافة إلى أن السوق كان محتويًا على آلات نصف عمر ، أسعارها فى متناول طالبى العيش . وعلى هذا تألفت منهم فرق موسيقية تعتمد على هذه الآلات ، فى مدينة كلفة بموسيقى الآلات النافخة فى المواكب والأعياد القومية ، والسيرك ، وحتى الجنازات ، والنزهات الخلوية .

كما وجدت لها مكانًا على الوابورات البخارية التى تمخر عباب المسيسبى ريحة جيئة من مصبه حتى التقائه بروافده فى أميريكا الوسطى : أنهار أليزورى ، والأحمر ، والأوهايو . وبذلك اتسع المجال للموسيقيين السود بآلات جديدة عليهم ، غير البانجو والجيتار . لم يتلق السود دروسًا منتظمة للعزف على آلات النفخ تلك ، ولا كانوا يعرفون شيئًا عن كتابة الموسيقى أو قراءتها . كل أدائهم قائم على التجربة ، والممارسة والحفظ

بالسماع . فكانوا ينقلون الأغانى الشعبية على تلك الآلات ، ويمعنون فى التلاعب بألحانها فى أسلوب فج ، وألوان صوتية غير معتادة ، وكان ذلك مصدر الإعجاب بجدة ما يؤدون فى براعة خارقة وإيقاعات عجيبة .

« الجاز » إذن بدأ ارتجالا واجتهادًا من شعب موهوب . نقل الألحان الدارجة على آلات موسيقية يشتد فيها الزعيق ، محاكاة لزعيقهم الحنجرى فى الغناء . وبهذا نحقق لهذه الموسيقى جدة فى الإيقاعات ، وفى التوافق ، والتنافر بين الآلات والألحان ، والصدام الكونترابنطى والهارمونيات ذات ألوان تخالف ما جرت به الموسيقى الحالمة . والخاصة الكبرى لهذه الموسيقى تعرف « بالسنكوبية » ، وهى التوكيد والاتكاء بشدة على النبر الضعيف ، وإضعاف النبر القوى بالمرور عليه مر الكرام .

أنشأ الأفريقيون فى أميريكا إذن موسيقى من نوع جديد على الإطلاق : شعبى ، سوقى ، منطلق زاعق ، محموم . وأى جمهور أصلح لها من رواد « ستوريفيل » فى سكرهم ومهيصتهم ! مما يعرفه رواد علب الليل الرخيصة .. والغالية . النجاح فيها رهين بكل الصفات التى انطلقت من الأبواق والشبابات والسلاميات : الكلارينت ، والكورنو ، والكورنت ، والطرمبيطة والطرمبونة ، وشتى أنواع الطبل والخبط والرقع .

وانتهى الأمر إلى أن تمكن البيانو كلى الاحترام من النزول إلى الحلبة بمنشآت وتركيبات موسيقية مصدرها الإيقاعات والزعقات والسنكوبات . ويلاحظ أمران واضحان فى هذه الموسيقى : ثبات الإيقاع فى القرار ، وعفرتة اللحن وتمزيقه بالإيقاع السنكوبى فى الأصوات العليا .

وبهذا غدا موسيقيو « الجاز » هم ملوك حى ستوريفيل ، شجعهم رواده على الانطلاق والمباراة فى الزعيق . والعنصر الأساسى فى الموسيقى التى

نشأت بأورليان الجديدة يتفرع إلى نوعين «الراجتايم» و «البلوز». ولا ترجمة لهذه الكلمة الأخيرة بما له علاقة باللون الأزرق، وإنما هذا مصطلح على موسيقى الأسى، والحنين إلى الوطن النائى، وطبيعته هذه جعلت «البلوز» أصلح للأناشيد الدينية أيضاً لدى السود.

ولست أرى ضرورة أو جدوى من محاولة تفسير كل هذه الكلمات. المهم أن «الجاز» بدأ فى أورليان باسم «راجتايم»، وإلى جانبه «البلوز». والمهم أيضًا أن نشأة «الجاز» ونموه كانا فيها بين ١٨٩٠ و ١٩٢٠ أما انتشار هذه الموسيقى فى أميريكَا وأوربا، وفى العالم، فقد بدأ بإصرار وزارة البحرية على حظر الدعارة، وإغلاق بيوتها، ومنتدياتها فى حى «ستوريفيل»، وتم ذلك بقرار الحكومة الفدرالية سنة ١٩١٧.

وإذا كانت بعض هجرات موسيقى الجاز إلى الشمال بدأت لمامًا، فقد انتهت بعد تصحيح «حى ستوريفيل»، وإغلاق ملاهيه، بهجرات جماعية على سفن المسيسبى البخارية التى تتحرك بقوة الرفاصات الجانبية أو الخلفية، مما نعرفه فى أوائل بواخرنا النيلية، وقد سرى بين أفراد هذه الفرق تيسر المعيشة فى سان لويس وغيرها من البلدان الواقعة على المسيسبى وروافده، وفى شيكاجو. ويمكن القول بإن «الجاز»، الذى ثبت فى نيو أورليان، نما وترعرع فى شيكاجو، وتضخم، وارتفع شأنه - كما هى العادة بالمدينة الغول - فى نيويورك.

ولم تقتصر الهجرة من الجنوب إلى الشمال على الموسيقين. لأن دودة القطن - وهو مع قصب السكر عماد ثروة الجنوب - استفحل شرها عام ١٩٢١، منتقلة من المكسيك عبر نهر «ريو جراندى»، وقضت على نصف

محصول القطن فى لويزيانا . وكانت أزمة اقتصادية فى الجنوب استمرت ثلاث سنوات .

وكانت هذه الهجرات - ومنع الخمر بقانون فيدرالى - مصدر السمعة السيئة التى لصقت بشيكاجو فى عشرينات هذا القرن . فقد تحولت المدينة العامرة إلى مرتع العصابات التى تعمل فى تهريب الخمور ، وتسبغ نعمًا ، مكاسبها على ذوى الذمم الخربة من الباحثين عن الثراء .. عن طريق الوظائف . ولعل القراء يذكرون حكايات آل كابونى وزعامته الرهيبة ، وأقرب صورة إليها شاهدناه حديثًا فى فيلم « الأب الروحى » كانت « رفاصات » المسيسبى هى أداة الانتقال ، يعمل عليها الموسيقيون ريحة جيئة ، وعندما يقف الرفاص بمدن « كايرو » و « سان لويس » و « منيا بوليس ، إلخ ، يشغل أهالى هذه المدن بفرقها الموسيقية طوال وقوف الباخرة .

ولا حاجة بى إلى ذكر أسماء « ملوك الجاز » فمعرفتى الفعلية بهم قاصرة ، وأنا واثق من أن هواة موسيقاهم يعرفون عنهم وعنها أضعاف ما أعرف عن فولفجانج ، أما دبوس موزار ، ويوحنا سباستيان باخ . المهم أن ملك ملوك « الجاز » لويس أرمسترونج ، غادر أورليان الجديدة على الرفاص « ديكسى بيل » ، وكلمة « ديكسيلاند » تشير إلى « نو أورلينز » . وترك مذكرات عامرة عن نشاطه الفنى فى سان لويس ، وقد أصبح حتى وفاته بطل أبطال الجاز فى العالم أجمع .

إنما اضطررت ، تقديمًا للمدينة التى أحببت بعد أيام قليلة قضيتها فى حيها الفرنسى ، المعروف « بالكاريه » (= المربع) أن أبدأ بأهميتها كمسقط رأس فن يجب أن نعمل له حسابًا ، مقتدين فى ذلك بالفرنسى

ديبوسى، وكان أول من أدخل إيقاع «الراجتايم» فى بعض مقطوعاته، وايجور سترافنسكى، ورافيل، وغيرهم من عظماء ما أسميها موسيقى الحضارة، كما عملت حساباً لموسيقى «الجاز» الذى حاول، ونجح، فى الانتقال إلى موسيقى الحضارة فى مؤلفاته التى قدمتها بالبرنامج الثانى: «رابسودى أن بلوز، وكونشرتو البيانو والأوركسترا، وفى متتابعة عن فيلم «واحد أمريكانى فى باريس» وأعنى الموسيقى الأميريكى جورج جير شفن.

چيمى كارتر

حدث هذا مساء الأربعاء ٢٠ من إبريل، ختام يومى الأول بمدينة أورليان الجديدة، وقد أويت إلى غرفتى بفندق «أورليان - بوربون»، بالحى الفرنسى، استعدادًا لمشاهدة رئيس الولايات المتحدة فى التليفزيون الملون، وهو يصعد درج الكابيتول بواشنطن دى. سى. ليخطب الكونجرس فى موضوع «الطاقة»، والخطة التى تقترح بشأنها. وقد جاء بالصفحة الأولى للنيويورك تايمز بعد ذلك بثلاثة أيام مقال حرره جيمس نوتون على أساس تحقيقات صحفية قام بها، هو ومجموعة من مراسلى الصحيفة الكبرى، بمكتبها فى واشنطن. المانشيت: «كارتر تصوره لخطة الطاقة دون أى اعتبار سياسى». وتحتها: «لقد عولت على كبح استخدام الأمة للوقود، حتى ولو كلفنى هذا عدم تجديد رياستى».

جاء فى مطلع المقال الذى شغل نيفًا وثلاثة عواميد: قال كارتر لزائره قبل أن يعقد حفل تقليده الرياسة، بأنه عاقد العزم على تصحيح (ريفورم) سلوك الأمة فيما يختص باستخدام الطاقة «حتى ولو كلفنى ذلك عدم تجديد رياستى» ويضيف الصحفى: «إن بالكونجرس ديموقراطيين يشعرون بإمكان الإصلاح، وبعض الآخرين يخشون بأن ذلك قد يعدل من آفاقهم السياسية» (ترجمة حرفية).

«والطريقة التى عرض بها الرئيس مقترحاته بشأن الطاقة، فى هذا الأسبوع تظهر الرئيس فى موقف يكاد يتجرد تمامًا عن السياسة. وهذا

عجيب فى عاصمة تعتبر الحرص على المصلحة الشخصية من المبادئ الأساسية للقيادة.

«والخطة فكر فيها تحت غطاء السرية بواسطة المختصين تقنيا، وواجهها اعتراض الاقتصاديين، ثم تحررت بواسطة السياسيين. وهذه الطريقة، قد تلقى ضوءًا على أسلوب رئيس غير تقليدى. طريقتة دارت على عناصر من النواع الآتى:

«عهد مستر كارتر بكتابة أهم موضوع فى سياسته الداخلية، حتى الآن، إلى رجل عقلانى، مترفع، من الحزب الجمهورى، هو جيمس شليزنجر، شديد الاقتناع بأهداف الطاقة، مع أضعف إحساس بالحقائق السياسية.

«ومع أن الرئيس أفضى بأن رجال وزارته أمامهم أوسع نطاق فى الحكم، فإن بعض المهتمين منهم اضطروا إلى شق طريقهم إلى الخطة المقترحة، مثل سكرتير النقل، وسكرتير الخزانة رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين».

وتبع ذلك تشريح للمشروع كله، وأثره لدى رجال الطاقة، ومن يعنيهم الأمر فى شتى الأنحاء والمراكز.

جلست إلى التليفزيون إذن، فى مساء ذلك الأربعاء، أشاهد قاعة اجتماع الكونجرس الحاشدة، وهى تنتظر مقدم الرئيس كارتر. ثم ظهر شخص نحو يمين الناظر إلى الشاشة وصاح بصوت جهورى معلناً: رئيس الولايات المتحدة، دخل بعده مستر جيمى كارتر فى بساطة وألفة، يحيى المعارف يمنة ويسرة باليد أو بالإشارة. متجهًا إلى المنصة حيث بدأ خطابه

على التو، فى جو توقع شديد، وقد ران السكون على المجلس بعد نوبة التصفيق المعتادة.

أقدر أن الرئيس تكلم فى حدود ساعة، واضح السماحة على محياه، يتحرك يمنة ويسرة حركات قصيرة، كمن يغير وقوفه من قدم إلى قدم - والصورة لا تظهر منه إلا نصفاً أو ثلاثة أرباع. لا يفارقه الهدوء مطلقاً، ولا يختفى الابتسام إلا فى فترات قصيرة.

سمعت الخطاب كله بوعى وتركيز، وإن لم أهتم كثيرًا بتفاصيل ما يعرض من مقترحات أولها ضريبة خفيفة تفرض على المستهلك للنفط، وتفرض فى زمن معين قادم.

فمركز اهتمامى هو الشخصية الواقفة فى الصورة أمامى، وأثر الخطاب على أعضاء الكونجرس وخاصة عندما قال مبتسمًا فى سذاجة بأنه يدرك تمامًا أن مطلبه ليس من المطالب التى تحوز قبول السامعين. وكان واضحًا للجميع، وحتى لنا نحن عابرى السبيل - بأن تلك البلاد الواسعة الأرجاء بمائتى مليون من سكانها تستهلك الطاقة المتاحة - البترول - باستهتار وتعسف فى كل مرافقها الصغرى والكبرى، فى البيت، والنَّدْوَة، والمصنع، وفى كافة أجهزة الإعلام، إضاءة وحركة، تصنيعًا، ودفئاً وتكييفًا، وحلاقة ذقن وتعقيص شعر، وفى الآلاف المؤلفة من سيارات الركوب التى تشبه البهو الفسيح الأنيق، وكاميونات التجارة، وكأنها بيوت تتحرك - أقول: كان واضحاً لنا جميعًا أن من المحال استمرار الحال، على هذه «البعزقة» المحمومة، وأن يومًا قادمًا سوف يدق ساعته لتبلغ الناس حدود الممكنات التى تعطيها هذه الطاقة، حسابًا لنفاد الوقود.

إذن فالمطلوب أولا: الاعتدال، والاختزال فى استهلاك البترول، والجد

والكد فى البحث عن مصادر للطاقة ، جديدة أو قديمة . حرارة الشمس ، والفحم الحجرى ، والطاقة الذرية وعدم التلكؤ فى استمرار البحث ، والتوسع فيما تنتجه بطون الأرض بآلاسكا .

كل ما أثاره الرئيس كارتر يكشف عن خلفية قلق بالغ لدى الغرب كله من تكرار توقف الضخ . أما التهديد البعيد فهو استمرار الحال على هذا المنوال ، فإن الحقيقة الرهيبة هى أن يومًا محتوم الأجل يصبح من الثابت فيه نفاد كل المخزون بباطن الأرض ، حتى فى أعماق المحيطات .

ولقد ذكرنى هذا «بموضوع إنشاء» كان قريباً من قلب مدرسينا الإنجليز قبل حرب ١٩١٤ . لم تك الدبابة قد اخترعت وكانت الطائرات أقفاص دجاج هزيلة ، والسفن والقاطرات جل عمادها على الفحم ، والسيارات كانت ترفًا ووجاهة تسير فرادى كل حين ومين بالشارع الذى نسميه اليوم رمسيس ! فكان «موضوع الإنشاء» : من المتوقع أن تستنفد المناجم فحمها ، فماذا يكون المعمل حينذاك : وكيف نتصور وسائل اتقاء هذا القضاء المحتوم ؟

آسف إن أبعدنى موضوع الطاقة عن هدفى ، وهو شخصية الرئيس جيمى كارتر ، وأثره على الأزمة التى نعيشها فى الشرق الأوسط مهبط الأديان السماوية ، ومنبت حضارات عظيمة ، وقد تعقدت الأمور من جراء شعب خليط هاجر من مساقط رأسه فى شرقى أوروبا وغربها وجار على السكان الأصائل ، عربًا مسلمين ومسيحيين ، ويهودًا شرقيين ، لغتهم جميعًا العربية ، وحكم الزمان على المغلوبين منهم أن يتفاهموا بلغة التوراة ، وقد تحولت على أيدى الدخلاء إلى عبرية بزرميط ، فرضتها دولة شديدة التعصب ، عنصرية المذهب ، دموية المزاج .

لم انته فى فحصى وبحثى إلى شىء ذى بال، ولا دفعنى إليه تفاؤل أو تشاؤم، بل مجرد ما نتوقعه من الموقف الجديد الذى وقفه الرئيس كارتر بين العرب والإسرائيليين. وهأنذا أصدق القارئ بما سجلته فى أوراق طائرة، قبل أن أبلغ هذا الشرح والتفصيل، مجرد انطباع من رؤية الرئيس الأميريكى فى التليفزيون الملون يخطب السلطة الثانية فى بلاده.

تصور سياسى بعد رؤيتى للمستر كارتر يتحدث إلى الكونجرس

هذا رجل عملى، مزارع متطور، بكل معنى التطور فى تلك البلاد محددة التخصص. ناجح فى عمله، طيب السيرة، يعيش فى بلده «بلينز» محبوباً من أهلها. إنسان متدين، حريص على تقاليد مذهبه فى إلقاء درس الأحد بالكنيسة. أول نجاح له خارج الفول السودانى، كان انتخابه حاكماً لولاية جورجيا. وكان هذا إشارة إلى طموحه نحو المركز الأسمى الذى بلغه مع مطلع العام الحالى. وبهذا دخل السياسة من بابها الكبير رأسًا، لا كرجل سياسى، بل كأميريكى حالفه التوفيق فى زراعته وتجارته، كما كان ناجحاً فى حكم ولايته. ونجح عندما كانت أميريكا تستغفر ربها فيما وصل إليه حالها تحت رياسة رجل لم يسلك الطريق السوى، وقال عنه أكبر صحفى أميريكى فى حديث خاص قبيل وفاته، وقد بلغ الثالثة والثمانين من العمر (وولتر ليمان): «إن الفساد المحكم الحلقات حول هذا النكسون أسوأ من كل ما رأيت فى حكم الأحد عشر رئيسًا الذين عرفتهم. الديمقراطية فى خطر، والحق أننا لم نحظ بعد فرنكلين روزفلت برياسة ذات جدارة. لقد قسوت على آل كيندى، بالرغم من ثراء أفكارهم. ولكن الأهم والأساس فى الحياة العامة ليس الألمعية، وإنما هو: «القوام الخلقى». يختار

معاونيه، ويحركهم فى كل اتجاه يراه أو يرونه. هادىء الطبع، ما فتئ موضوعًا تحت مجهر الصحفيين السياسيين. وفى حديث واحد منهم عنه، أشار إلى وصف الرئيس السادات له، بعد اللقاء التاريخى فى واشنطن، حين عبر عن انطباعه بأنه إنسان « سويت » وكان تعليق الصحفى: هذا التعبير، وإن كان غير صحيح من الناحية « الأيديوماتك » فهو صحيح فيما يعنيه البرزيدانت السادات.

« الرجل عذب فى عيونه، هادئ فى ابتسامته، وبهذا حقًّا قد جمع اللقاء بينه وبين رئيسنا، جمع بين طبيعتين إن لم تتشابها ظاهرًا، فإن سلامة الغرض، وصراحة العرض، كانا أساسًا لتبادل الثقة بين رجلين، من بيئة ريفية. وقد عبر كارتر وصفًا لهذا اللقاء بما يمكن اختزاله بكلمة « أوه - كيه ». فلنركز الضوء بعد انقضاء أكثر من شهر على هذه الوقائع بقصاصات من صحف شيكاجو ونيو أورليان ونيويورك، لا من ناحية أنبائها، بل لإكمال التحليل لشخصية « كارزماتية » من النوع الناعم لا الزاعق الهائج، المحطم للعوائق.

عرفت أولا أن كارتر خدم مجندًا فى البحرية، وفى الغواصات الذرية تحت قيادة الأميرال هايمان ريكوفر. وأمامى صورة لكارتر يستقبل بالبيت الأبيض رئيسه السابق فى البحرية.

وهذا مختصر ما جاء بصحيفة « النيويورك تايمز » أرسله الصحفى من واشنطن فى ٢٤ من إبريل: سأله الصحفى: « من هو أعظم الناس أثرًا فى جيمى كارتر؟ أجاب بعد تفكير ملى، وكان الموضوع لم يرد من قبل: والداه طبعًا، وأكيدًا أستاذة فى المعهد العالى اسمها جوليا كولمان ذات صوت حنون. ثم يصل دون تردد إلى الأميرال هايمان ريكوفر، الفظ،

المشاكس الذى أنشأ أسطول الغواصات الذرية .

«كان له أثر عميق على حياتى ، أكثر من أى إنسان ، فيما عدا الوالدين» .

يقول مستر كارتر وهو يتذكر تلك الحقبة الهامة فى تكوينه ، منذ عشرين سنة مضت عندما كان شابًا ، ضابطًا بحريًا طموحًا ، وكان الأميرال قبطانه المتجهم الصارم ، المستقل برأيه عن الجماعة ، شديد الحرص جدًا على تحقيق أهدافه ، غيوراً على سلطاته ، أوتوقراطيًا فى ممارستها . فهناك إذن دلالات على أن أثر الأميرال البالغ اليوم السابعة والسبعين من العمر أصبح القوة الفعالة فى تكوين أسلوب الرئيس كارتر الذى تحول من مرءوس الأميرال ، إلى قائده الأعلى .

وهذا الأسلوب يقلق بال مساعديه فى البيت الأبيض إذ يشعرون بأن منحاه هو خنق مرءوسيه وتخويفهم ، وهو - مثل الأميرال - شديد الإحساس بقيادته المعنوية الأخلاقية ، يستريح إلى خطب الوعظ . وهو - مثل الأميرال - يمكن أن يكون لطيفًا رقيقًا مع من يريد إرضاءهم وإقناعهم ولكنه - مثل الأميرال ، مقطب الجبين - يمكن أن يكون جافًا ، حاد اللسان مع من لا يتفقون معه ، أو يثيرون استياءه .

وواصل الكاتب شكوى رجال البيت الأبيض من حزم الرئيس ، واملاء إرادته دون أن يسمعوا منه كلمة تشجيع أو ملاطفة .

قال كارتر فى الرسالة التى قدم بها نفسه إلى الناخبين : «وكنا نخشى الأميرال ، ونحترمه ، ونجهد فى إرضائه . وفى هذا الصدد لا أذكر أنه نطق يومًا بما يعنى رضاه عنى ، وعندما قرأ أحد مساعدى كارتر هذا الكلام صاح : إنه الرئيس بعينه :

وواصل الصحفى على هذا النمط، محاولا تصوير الجو فى «البيت الأبيض» كأنه بيت التوجس، والخضوع، والعمل الشاق، دون جزاء أو شكور.

ولم يتأخر الرد على هذا المقال، من المتحدث الصحفى عن البيت الأبيض. ليس فيه من جديد، فهو الصورة الديوانية التى تنتقص من «ادعاءات صحفى النيويورك تايمز»، وتؤكد أن المتحدث الصحفى تحرى من كبار موظفى «البيت»، فلم يجد سوى واحد منهم ذكر أنه تكلم مع الصحفى، ولكن فى غير ما جاء بمقاله. كل هذا لا يعنينى، لأن المتحدث الصحفى يبدو ناقص الخبرة بحياة البحر - ولا أزعم لنفسى من هذه الخبرة إلا قليلا - بسبب عملى السابق مع قومندانات البحرية المصرية أيام اشتغالى بعلوم البحر، ومع القومندان الإسكتلندى للباخرة «مباحث»، وعليها بعثة السير جون مورى فى المحيط الهندى.

وأهم ما خرجت به من تجربتى المحدودة احترامى الكامل لرجال البحرية. فأخطار البحر، والحرب تتطلب من القيادة صرامة تامة، وسلوكًا أخلاقيًا ساميًا. وأدركت أن الدرس الذى يتلقاه مثلى من النظام البحرى، يترك أثرًا بعيدًا فى طبعه، دون أن يغير من طبيعته المدنية. ولعلى أخرج من كل هذا باطمئنانى إلى أن الرئيس كارتر رجل على خلق عظيم، وأن إحساسه عميق بواجبه لا نحو وطنه فحسب، بل نحو العالم بحكم رياسته لواحدة من أقوى الدول فى عالم اليوم. ولا أقول هذا تفاؤلا بما يمكن أن يتم على يدى كارتر فيما يعنينا، ويعنى مستقبل بلادنا. فأمر هذا كما قال الرئيس السادات يتعلق بنا وحدنا، إلا إذا كانت «وحدنا» هذه تعنى شيئًا أكثر مما أفهمه أنا عندما أذكر بمستقبل بلادى.

إنما أقول : أيًّا جاءت نتائج جهود كارتر فى سبيل الوصول إلى حل فى منطقتنا إيجابيًّا أو سلبيًّا ، فإنى مطمئن مقتنع بأن الولايات المتحدة تحظى برئيس تربى على خلق رجال البحرية ، وأنه صادق الوعد مستعد فى تنفيذه الذهاب إلى أبعد حد .

كيسنجر.. ميترنخ العصر الحديث

١

هذه ترجمة حديث صحفى، عن «الأوبزيرفر» عدد ١٢ يونية: غادر هنرى كيسنجر وزارة الخارجية (سكرتيرية الدولة) فى يناير من هذا العام بعد رياسة جيمى كارتر وعرضت عليه خدمات كاتب ومعلق سياسى بلغت ستة ملايين دولار، وفى الأسبوع الأول من الشهر الجارى ذهب دجلاس كيتر نائب رئيس صحيفة «الأوبزيرفر» اللندنية وكنيث هاريس (أميريكى) محررها، إلى الدكتور كيسنجر فى مكتبه بالدور العاشر لمركز الدراسات الاستراتيجية بمدينة جورج تاون، لإجراء حديث صحفى معه على دورين وتقدما إليه بأسئلة لا تنتظر انتهاءه من كتابة مذكراته فى عام ١٩٧٩. ومن الأسئلة المزجاة، على سبيل المثال: لماذا يعتبرك بعض الناس فيما يقرب من مجرم حرب؟ كيف استطعت كيهودى التعامل مع زعماء العرب؟ ولقد أرخى سدول الكتمان كثيفة على موضوع واحد... صلاته الشخصية بالرئيس السابق للولايات المتحدة، ريتشارد نيكسون.

ص: أنت أول وزير خارجية منذ الحرب العالمية الثانية، تستعفى من وظيفتك، وقد ازداد التقدير العام لك؟ حسبما ظهر فى عمليات الاستفتاء بأوربا والولايات المتحدة. وكان هذا على عكس ما جرى لدين أتشيسون وجون فوستر دلاص ودين راسك. وما تفسيرك لذلك؟.

ك : كنت بالخدمة فى حقبة تطلبت تغييرات كثيرة فى سياسة أميريكا . والحاجة إلى التعديلات لم تكن من اختراعى ، أو اختلاق الدواوين التى عملت بها . وعملية التغيير كان يجب أن تحدث فى فترة مشوشة مرتبكة وخلافات نشبت فى هذه البلاد من جراء حرب الفيتنام أولا – ووترجيت ثانيًا . وهذه المتغيرات مهدت لعمليات درامية رمزية كشفت عن طريقة جديدة فى تناول المسائل وتنظيم دولى جديد وجاء هذا مساقًا لإحباط وخيبة فى بعض المواضع ، وتفكك السلطة التنفيذية وتحللها فى مواضع أخرى بسبب « ووترجيت » .

وكان الجمهور الأميريكى فى حالة تحطم ، كما طال الزمان بالكونجرس يتطلع أعضاؤه إلى عمل يفخرون به أو يعتبرونه عنوانًا عليهم . وهكذا خَرَجْتُ من تلك الحقبة فى صورة معقولة بسبب هذه الظروف إلى حد ما .

ص : ومع ذلك يعتبرك بعض رجال الجامعات ، والصحفيين فيما يقرب من « مجرم حرب » وهدد أساتذة وطلاب بالتظاهر ضد عودتك إلى الحياة الجامعة . لم كل ذلك العداء ؟ .

ك : أما من الصحافة فاعتقادى أنها أقلية صغيرة . والموضوع الأكثر أهمية ليس طريقة معاملتى ولكنه فى التساؤل ماذا جرى لمجتمع المفكرين فى الوقت الراهن وفى السنوات العشر الماضية . فأدى إلى هذا الكره الفظيع للذات ؟ .

إننى أفهم أن يختلف الناس على قرارات فردية اتخذت فى خلال حرب فيتنام ، لأن كثيرًا منها كان شديد العسر ، انقسم الناس بشأنها قسمة متعادلة إلى حدٍ ما . ولكنى كنت أحسب أن المفكرين

بخاصة يفهمون المأساة فى موقف يبلغه الإنسان عندما يتولى مركزًا فيجد أن ٥٥٠,٠٠٠ أميريكى مشتبكون منذ زمن فى معارك. كيف يمكنك كدولة عظمى تخليص نصف مليون أميريكى من المعركة فى ظروف لا تسئ إلى روح الشعب ولا إلى الالتزامات الأميريكية فى أنحاء العالم. إنه لأمر شديد التعقيد.

والواقع أننا خفضنا بشكل محسوس القوات الأميريكية عامًا تلو عام، عندما كنا فى الخدمة وخفضنا عدد المصابين «قتلى وجرحى» فى فيتنام من ٩٠٠٠ فى السنة الأولى إلى ٤٠٠٠، وذلك قبل اتخاذ سياسة جديدة ثم إلى ١٠٠٠ فى السنة الثالثة. ومعنى هذا الهبوط إلى أكثر من النصف كل عام وإلى أكثر من هذا جدًّا فى أعداد التخفيض من القوات.

ويمكن أن يتجادل الناس إلى الأبد فيما إذا كان فى استطاعتنا إجراء كل ذلك قبل سنة من تولينا، ولكن الحق أنا بدأنا التخلص والفكاك من أول يوم.

واستراتيجية هذا الفكاك رسمت فى مقال كتبته فى خواتيم سنة ١٩٦٨ ونشر فى يناير ٦٩ بمجلة «الشئون الخارجية».

لا أريد أن أناقش فيما إذا كنا على خطأ أو صواب. أما أن يوضع ذلك فى حساب التعلق بالحرب. أو أننا مجرمو حرب، وما إلى ذلك من شعارات فلنا أن نتساءل إن كانت بعض هذه الجماعات ترى من الضرورى إقامة عدد رمزى لها. ففى كل آن يمكنهم تعليق أى شىء بموضوع فيتنام، يخرجون من خنادقهم إلى اجتماعات تشبه اجتماع المحاربين القدماء، ليحققوا الأمجاد

الخالصة فى الستينات، عندما كانت المؤسسات معرضة للهجوم.
وأعتقد أن لا شأن لشخصيتى بكل هذا وقد حدث ذلك لكثير ممن كانوا منضمين إلى حركة السلام ولو أنهم خالفوا وسائل تلك الحركة واستراتيجيتها، ووافقت أنا على تحركاتهم، وبذلت قصارى جهدى لبلوغ السلام مع اختلاف وسائلى عن وسائلهم.

ص : ما شعورك حيال تهجم هؤلاء الناس عليك؟

ك : «شوف يا سيدى [هذه ترجمتى لكلمة «ول» التى درجنا خطأ على ترجمتها الحرفية: حسناً]. أكثر هؤلاء الناس عملت معهم سنين عدة، ومع قلة وزنهم لدى الرأى العام فإنهم جزء من تاريخى الفكرى. ويؤلمنى تَهَجُّمُهُمْ على، أكثر من نقد الآخرين لى، فى أقصى اليمين.

ومن ناحية أخرى، فقد توقعت حدوث هذا منذ زمن طويل. ويقيناً حاولت فى وظيفتى أن أضمد جراح الحرب الفيتنامية ولا أظنك ملاقياً طوال قيامى بالخدمة أى أثر لهجوم على حركة السلام لأنى فى صميمى احترم موقفهم الأخلاقى. إنهم لا يسببون لى أى خسارة ولكن الوقت قد حان لإقفال باب الجدل حول حرب فيتنام.

ص : هل تعتقد أنك وفقت بين عملك كوزير للخارجية (سكرتير الدولة)، أى الرجل المترفع عن المعارك اليومية، وبين الدبلوماسى المكوك – أعنى الرجل الذى يتحرك بشخصه إلى نقاط الأزمة، ويصرف كمًّا عظيماً من الوقت والجهد فى المفاوضة بشخصه؟.

ك : ألاحظ قبل كل شىء أن من خلفنى، السكرتير سيروس فانس وهو موضوع احترامى العظيم، أعلن منذ توليه أنه لن يضيع وقتاً فى

الأسفار، وهو اليوم يتنقل فى رحلات مثلما كنت أفعل. ذلك لأن جدول الأعمال يفرض ضرورات معينة. فلا طريق لسكرتير الدولة يجنبه حضور اللقاءات الوزارية التى تعمل فى محالفاتنا الهامة، أو فيما له صلة بنا. لا طريق إلى تجنب التفاوض مع الاتحاد السوفيتى فى موضوع الأسلحة النووية بعيدة المدى، أو مع الصينيين. ثم هناك نشاط بين بلاد الشمال وبلاد الجنوب يتطلب على الأقل حضورًا، ولو رمزيًّا لاميريكا.

ص : ولكن السؤال ألقى خصيصًا بتلك الساعات الثمينة التى كنت تتحرك فيها ريحة جيئة فى الشرق الأوسط، ألم يكن ممكنًا أن يقوم غيرك بهذا؟

ك : كلا. أظنك إذ تتأمل الموقف فى الشرق الأوسط ترى أنه كان فى مسيس الحاجة إلى عصارة الحضور الأميريكى. ففى وقت تحركى هناك بشخصى، كان إيقاف ضخ البترول قائمًا، وكانت هناك هدنة قلقة وحضور شامل للسوفيت وخطر انفجار جديد.

إن صورة العلاقات كلها، كانت تقتضى التغيير. وخطوات لا سابقة لها تتخذ فى اتجاه السلام، وهذه عملية لم تكن بالسهولة التى يمكن أن يقوم بها موظفون مرءوسون، فقد كان هذا مستحيلا مع شخصيات مثل السادات والأسد، تتحمل المسئولية بنفسها، كان ذلك مستحيلا بدون حضور سلطة من الناحية الأخرى (الأميريكية) هى التى أمكنها اتخاذ الخطا الصعبة.

ص : سؤال سريع فى ذيل هذا: ألم تعجب كيف استطعت، أنت اليهودى السير قدمًا، أو أحسن من أى شخص آخر، مع الزعماء العرب؟.

ك : « شوف يا سيدى » كان فى هذا عنصر مثير للمشاعر. إننى حاولت فى كل مفاوضة أن أفهم إلى أعمق إمكانى، نفسية (بسيكولوجية) ومطمح، أو آمال الأشخاص الذين أتعامل معهم. إنها لخرافة دارجة، الاعتقاد بأن مفاوضًا ذا قيمة هو من يتحدث إلى أشخاص مختلفين، كل بكلام يخالف الكلام مع الآخرين. مستحيل أن تنجح بهذه الوسيلة، لأنك تقابل هؤلاء الأشخاص مرات ومرات.

المفاوض الطيب هو من يمحض من يفاوضهم الثقة بأنهم يتحركون فى الطريق الذى يتعلق بمصالحهم ربما أن هؤلاء مسئولون عن مستقبل أوطانهم، فإنك مجازف دون تبصر إذا حاولت خداعهم فى هذا. كل ما يمكنك عمله هو أن تؤثر على حواف إدراكهم، وكنت أعتبر هذا قمة دورى.

سؤال خاص بمفاوضات روديزيا : والإجابة عليه :

ص : فى بريطانيا تجرى مناقشة عن الصلة بين وزير الخارجية ورئيس الوزراء. وقد جاء زمان فسدت سياسة بريطانيا بسبب تدخل رئيس الوزراء فى عمل وزير الخارجية : تشامبران وإيدن مثلا. هل يمكن أن تعطينا فكرة عن صلة عمل جيدة بين رئيس الولايات المتحدة وسكرتير الدولة ؟.

ك : « شوف يا سيدى ». نظامنا مربوط بعجلة الرياسة مباشرة. أما رئيس الوزراء فى بريطانيا فيرأس هيئة تتخذ قراراتها مجتمعة وفى اجتماع الوزراء الأميريكان لا تتخذ قرارات جماعية. وإذا كان رئيس الولايات المتحدة حصيفًا فإنه لا يدع لمجموع وزارته اتخاذ قرارات. لأن القرارات والمسئولية على عاتقه وحده، وكل أعضاء مجلس الوزراء عندنا فى الحقيقة، مستشارون للرئيس.

والطريقة المثلى هى التى تجعل الرئيس مستريحًا لطريقة اتخاذ القرارات، وأن يطمئن إلى أنه اتخذ قراره بعد اختيار حكيم لواحد من ضمن قرارات عدة ولا يعد هذا قاعدة مطلقة لأن الأهم فى ذلك متوقف على طريقة فهم الرئيس وتصوره وإدراكه لدوره، ثم على شخصيته.

فالرئيس نكسون كان مؤمنًا بأن السياسة الخارجية تخرج «من البيت الأبيض، والرئيس فورد كان مؤمنًا بمسئولية أكبر يلقيها على أكتاف الوزارة، والرئيس كارتر مؤمن بالدور الأكبر للرياسة، وقصارى القول فى اعتقادى هو أن النظام الأميركى يؤدى أحسن أدائه عندما يكون سكرتير الدولة (وزير الخارجية) ليس فى صف الناحية النظرية فحسب، ولكن فى صف الواقع. فبغير هذا يصبح ديوان وزارة الخارجية عاطلا. وإذا طال به الإهمال، انزاحت عنه المسئولية.

ولكن يمكن لسكرتير الدولة أن يكون النصوح الأكبر. فالواجب أن يكون الرئيس وهو، متداخلين عقليًّا (كل فى عقل الآخر)، إلى درجة ألا يتحقق تمييز بين من هو الذى قرر، وماذا كان قراره هذا.

ويتساءل الصحفيون عن عدد الخلافات بين رئيس ووزير خارجيته. وعن كيفية تغلب الرئيس على سكرتير دولته. ومن رأيى إذا حدث تغليب رأى الرئيس على السكرتير مرات عديدة، فإن من واجب الرئيس أن يعين شخصًا آخر للخارجية. فواجب الاثنين معًا أن ينشئا سياسة متماسكة يتفقان عليها. فإن لم يتفقا كان هذا

خطأ . أحدهما يمكن أن يصحح رأيه ، إنما النتيجة وبال على النظام ذاته .

ولهذا أظن أن الصلة بين ترومان وأنشيسون كانت مثالية . كما أعتقد أن صلاتى مع الرئيسين اللذين عملت معهما كانت طيبة . وعموما اعتقد أن سكرتير الدولة ينبغى أن يكون المستشار الأول . فالنظام شديد التعقيد إلى درجة أنه لا يمكن للشئون أن تخرج كلها من البيت الأبيض .

ميترنخ العصر الحديث

٢

استأنف ترجمة الحديث الصحفى مع الدكتور هنرى كيسنجر أجراه اثنان من صحفى «الابزيرفر» اللندنية.. وقد وقفت به عند قول كيسنجر.. وعمومًا أعتقد أن سكرتير الدولة ينبغى أن يكون المستشار الأول للرئيس.. فالنظام شديد التعقيد إلى درجة أنه لا يمكن للشئون أن تخرج كلها من البيت الأبيض.

وختام إجابته هو: «ومع أنى شاركت فى الاجتهاد لتحقيق قولى - فالأمر ضرورى فى بعض الأحيان - فإن وسيلتى لم تك أفضل فى هذا التحقيق».

ص : هل الكونجرس غدا أصعب، أو أسهل مراسًا فى تعامله مع وزير الخارجية ؟.

ك : لقد تغير الكونجرس فى السنوات الثمان، مدة خدمتى. فحين نزحت إلى واشنطن كان به عدد من الشخصيات القيادية - فى مجلس النواب والشيوخ - تستطيع أن تتبين منهم الممكن، ومع من يمكن التفاوض.

أما اليوم فلا يوجد قائد رأى يملك الأصوات الكافية لتقدير موقفك بدقة. وعلى هذا نجد تحالف مجموعات لكل شأن من الشئون. وتتغير هذه التحالفات بتغير الموضوع. وهذا يستقطع وقتًا

غير محدود من سكرتير الدولة. وقد قضيت نصف وقتى مع الكونجرس، وأنا على ثقة بأن من خلفنى يصرف معه وقتًا معادلا لما صرفت.

الأمر الثانى فى أن الكونجرس قائم لإصدار القوانين لا ليباشر السياسة اليومية، والشئون الخارجية. وإصدار القوانين عملية تقتضى خطوات يتم فيها التفاهم على حلول الوسط وينتهى بالموافقة على تلك القوانين. أما الشئون الخارجية فهذه عملية متواصلة تتوقف على الإحساس الدقيق بها تحت السطح.. وتدخل الكونجرس فى قرارات تكنيكية صميمة يؤدى فى الأقل إلى أضعاف الترابط المنطقى، لأن لكل تدخل تحالفًا مختلفًا، وتنشأ عن ذلك تعقيدات كبيرة.

ص : هل كان لسنواتك الأولى فى ألمانيا حتى سن الخامسة عشرة تأثير تكوينى على تفكيرك؟.

ك : أظنك تتوقع أكيدًا أنه كان لها بعض التأثير على تفكيرى، أى نعم.

ص : هل لك أن تفصح أكثر؟.

ك : أقول لك: كان أثرها بطرائق متعددة. وأظن أنه من غير الممكن الحياة فى دولة شمولية وخاصة لعضو فى جماعة مضطهدة (اليهود الألمان) - دون التحقق من أن المجتمعات معرضة لمصائب لا راد لها، لعدم وجود طريق واضح يؤدى إلى اتجاه إيجابى.

ثانيا: فى ظنى - على الرغم مما يبدو فى هذا من «مسح الجوخ» أن الحياة فى ألمانيا النازية تحمل الإنسان على تقدير أهمية الولايات المتحدة.

وهى الأهمية التى يبدو أن الأميريكان القح لا يفهمونها،

وبخاصة أولئك المفكرين الذين درجوا على الإنحاء باللائمة على بلادهم.

عندما وصلت حديثًا إلى هذه البلاد طلب منى فى المدرسة الثانوية أن أكتب موضوع إنشاء عما أراه، والمعنى من مجيئى إلى أمريكا. فكتبت بأن الأمر ليس سهلا على مهاجر يتكلم لغة البلاد المضيفة بلكنة أجنبية. ولكنى عندما أفكر بأنى أستطيع مع هذا عبور الطريق رافع الرأس فإنها لتبدو لى تجربة مثيرة إلى حد كبير.

نعم اعترف بأن الأمر شخصى. ولكن كل من عرف الحرب فى أوربا، ورأس استقبال الشعوب المحررة للأميريكان بعد ختام الحرب، يجب أن يعتقد بأن هذه البلاد (أمريكا) لها دور هام جدًا فى إحياء الأمل بين الناس، ويتعين عليها ألا تداوم على تعذيب نفسها مما يؤدى إلى تحطيمها.

ص : متى بدأت التفكير المنظم فى السياسة الخارجية ؟.

ك : شوف ياسيدى (ترجمتى لكلمة «ول») لقد كنت دائمًا مهتمًا بالشئون الخارجية ولكنى لم أفكر قطّ بأن فى إمكانى القيام بدور ما فى تلك الشئون. ودام هذا إلى أن التحقت بالجيش، أى حتى سافرت إلى أوربا، مجندًا فى الجيش الأمريكى، وقررت أن هذه منطقة أحتاج إلى التفكير فيها أكثر من ذى قبل، وذلك ما جرنى إلى جامعة هارفارد والتخصص فى هذا الميدان.

ص : هل كان تفكيرك نافعًا مما يشبه القول «يجب علينا ألا نلج هذا الجحيم مرة أخرى، يجب أن أحاول القيام بدورى فى إيقاف العمل ؟

ك : إذا كان تعريفك للجحيم لا يقتصر على الحرب وحدها، بل ينطوى

على النظم الشمولية بقضها وقضيضها فإنى مجيبك أكيدًا بأى نعم! وبشدة.

ص : هل لديك مجموعة آراء متماسكة حول السياسة الخارجية، مثلما كان لدى بعض ساسة أوربا الكبار، فيما مضى؟.

ك : أُس السياسة الخارجية أن تربط الأفكار بالممكنات. فلا أظنك تستطيع مباشرة السياسة الخارجية بطريقة دجماطية بحتة. وحتى الدجماطيين الذين كانت لديهم بعض أفكار، ولو بدائية فإنهم يجهدون فى تحقيقها. وقد ينتظرون الظروف التى تفرض عليهم هذا التحقيق. فالحقيقة أنه لا وجود لشىء اسمه الدجماطية البحث. كانت لدى بطبيعة الحال أفكار. فكرت مليًّا فى الصلة بين البنية القومية، والشرعية الدولية والسلطة، أعنى الصلة بين الأفكار المثالية التالية والواقع القائم. وحررت ورقات فلسفية فى هذا الموضوع. إنما السياسى فى الوقت نفسه لا يصح أن يكفى بالفكرة، بل يجب أن يلم بمعالجة الوسائل. وما حاولت إثباته هو الوصل بين الفكرة والوسائل. لأن أس مباشرة السياسة هو أنه لا سبيل إلى إدخال كل العوامل الممكنة فى حسابك.

ص : أى كتاب، ومن المفكر الذى كان أعمق أثرًا فى نفسك، وأنت مراهق؟

ك : شوف: كما قلت لك، كنت معنيًّا أكثر بفلسفة السياسة. تأثرت كثيرًا باسبينوزا وقانت، كما تأثرت بناحية واحدة من نواحى شبنجلر - لا فى توقعه تدهور الحضارة، فهذا أمر ثانوى - ولكن فى فكرة وحدة المجتمع حيث تلتقى الفلسفة، والفن، والرياضيات،

والسياسة فى إطار مفاهيم واحدة. راقت لى هذه الفكرة جدًّا، ولا أدرى ماذا كانت نتيجتها العملية فى الوصول إلى المباشرة السياسية، إلا أن تكون قد أثارت اهتمامى بمجتمعات مختلفة.

ص : لقد قورنت فى أغلب الأحيان بميترنخ وبكاسيلرى. هل يمكن أن تقارن بشخص ما؟ ولماذا يذكرَ الناس دائمًا فيما يختص بك هذين السياسيين من أهل القرن التاسع عشر؟.

ك : شوف، لأننى وضعت كتاباً عن ميترنخ وكاسيلرى. ومن سخريات القدر أن جاء هذا الكتاب عفوًا. فالأصل أنى أردت وضع مقدمة لكتاب عن بسمارك، أوضح فيها الفرق بين سياسته الخارجية وسياسة من سبقوه. ولكن التقديم طال ونما حتى انتهى إلى كتاب بعينه. أما الكتاب عن بسمارك فقد توقف فى الطريق ولم أتمه قط. كتبت منه ثمانية فصول وتخليت عنها عندما ركزتها فى مقال واحد. إنك لا تستعمل التاريخ، كما تستخدم كتابًا فى الطهى، فتقارن نفسك بفرد ما. لقد أثر علىّ ميترنخ بمهارته الدبلوماسية، وبما حقق كاسيلرى، وميترنخ، والساسة الآخرون. لقد أقاموا تسوية دولية عاشت قرناً من الزمان.

إلا أن الدروس التى يمكن استخلاصها مما أحدثوه لا مكان ذا أهمية لها فى عصرنا.

ص : عندما كنت تفكر وتؤلف فى السياسة الخارجية، وأنت أستاذ شاب، هل طرأت عليك فكرة قيامك يومًا بمباشرة سياسة خارجية، أى أن تصبح صاحب سياسة؟.

ك : عندما كنت أستاذًا شابًا فى هارفارد، كان من المستحيل أن أتصور عملية تنتهى بى إلى أن أصبح الشخص الأول فى وضع سياسة

خارجية . فكرت فى أن أستشار عرضًا فى شئون محدودة ، ولكن هذا لا يعنى أن أكون واضع سياسة . كلا لم تطرأ على مطلقًا فكرة طلوعى كشخصية أولى فى مباشرة سياسة خارجية .

ص : هل وجدت فى الإعلام الهائل حولك ، وأنت تسافر من هنا وهناك ، أو حتى وأنت بعقر دارك أمرًا يعينك فى مباشرة السياسة الخارجية ، أو يعرقلك ؟ .

ك : فى ذروة شهرتى الإعلامية ، وجدت أنها مفيدة جدًّا . لأنها تمكنت من إعطاء صورة للسياسة الأميريكية فى وقت متاعب داخلية قاسية . ولكنها لم تعد خيرًا خالصًا فيها بعد ، لأنها عرضتنى هدفًا مكشوفًا للهجوم علىّ .

ص : قلت يومًا : السلطة أعظم مقوٍّ للأعصاب (الأصل « أفروديزياك ») ، ولكنك لم تشرح لنا ماذا عنيت بذلك ؟ .

ك : الحق أقول لك ، دى كانت نكتة ، ولكنك أكيدًا .. أعنى أن من الواقع عندما تتبوأ مركزًا ساميًا ، فإن حياتك الاجتماعية تنمو وتتكاثر بما لا يتكافأ مع ميزاتك الحقيقية .

ص : هل راق لك دور راقص « السوينج » ؟ .

ك : لم تصدر منى أى شكوى من هذا الدور . ولم أبذل جهدًا جادًّا فى الإقلاع عنه (كل هذا إشارة إلى الابتذال فى حياة المتحدث الاجتماعية) ؟ .

ص : ظهر موضوع انتقاد يمس المبالغ الطائلة التى عرضت عليك ، وعلى بعض رجال الحكم بعد مغادرتهم له . ما رأيك فى هذا النقد ؟ .

ك : « أول رايت » [طيّب] ولكنى أفكر بأن المرء ملزم بالتفكير فى أنه

خرج مدينًا إلى آذانه من جراء القيام بخدمة عامة . وحتى الآن فإن قدرًا عامًّا من دخلي يصرف فى سبيل التحفظ على أمني ، ويجب ألا يؤثر هذا الصرف على أسلوب معيشتي .

ص : تعنى أثره فى تخفيض مستوى حياتك ؟

ك : أى نعم ، بمعنى ألا فائدة لى فى هذه التكاليف . ثم لاحظ أنه ليس شذوذًا إذا كتبت الشخصيات العامة مذكراتها عن حياتها فى الحكم . والواقع أن كل رؤساء الولايات المتحدة وأغلب سكرتيرى الدولة نشروا مذكراتهم .

ص : هل تخطط لهذه المذكرات أن تتألف من مجموعة أفكار أو أن تجىء سردًا لوقائع تاريخية ؟

ك : الأمل أن تجئ تاريخًا جذريًّا ، أكثر منها تقديم صور قلمية موجزة (فنيتات) . فبطبيعة الحال ينبغى ألا يتكلم الكاتب عن أمور أو أعمال لم تبدأ فعلا ، ولكنى أود إيضاح العوامل التى أدت إلى القرارات – أقصد العوامل الدولية والقومية ، الضغوط الديوانية (البيروقراطية) والمؤثرات التى تجئ من الشخصيات ، ما كان المقصود بلوغه وما انتهى إليه فعلا ، مما يجعل الناس تقبل على قراءته فى فترة من فترات المستقبل ، لا رضاء عنه ولكن فيما يعنى أن ذلك كذلك .

ص : قيل بأننا فى حاجة إلى «كينز» سياسى (اللورد كينز المفكر الاقتصادى الذى أنقذ العالم من أزمته الطاحنة فى آخر العشرينات وأوائل الثلاثينات) ليحلل لنا ورطتنا المعاصرة . هل تكون أنت هذا الرجل ؟ .

ك : إنه لغرور غير مصدق أن يزعم إنسان هذا قبل أن يكتب سطرًا، وإنها لمن سخريات القدر أن يذكر الناس كينز فى اللحظة التى لم تعد المشاكل التى واجهها مسيطرة.

ص : سؤال قد تشاء أو لا تشاء الإجابة عنه، ولكنه يختص بشخصيتك ذاتها: هل كنت رجلا عصبيًّا فى معاملتك لمعاونيك، أعنى رجلا جياش العاطفة، إنسانًا تصعب مجاراته وإرضاؤه؟

ك : لست أفضل القضاة حكمًا على شخصيتى. والواقع أن جميع معاونى تقريبًا ظلوا معى السنوات الثمان مدة عملى كسكرتير دولة (وزير خارجية) وأغلبهم غدوا أصدقاء حميمين. وفى ظنى أن الصورة التى ظهرت للناس كانت من صنع أناس خدموا معى نحو عام فى بدء عملى بواشنطن، وجعلوا من هذا التصوير مصدر كسب لهم. ولم يتنبه الناس المعاونون الذين لبثوا معى ثمانى سنوات، وهم الذين ألفوا مجموعة من أحسن الجماعات تضامنًا، وفكرًا، مما ندر أن تمتع به موظف كبير طوال خدماته. أعتقد أن دور رئيس مؤسسة، هو الإيحاء لمعاونيه بأن يؤدوا أعمالا لم يعرفوا أنها فى مكنتهم. وأنك لقادر أن تستأجر الخبرة التقنية، أما ما لا سبيل إلى استئجاره فهو القدرة على تجاوز الإطار المعهود. وهذه عملية يمكن أن تكون مؤلمة.

إلا أنه لا يحكم الناس على شاغل وظيفة عامة من ناحية إجراءتها الروتينية ولكن بإحساسهم فى النهاية بالنتائج، لقد تأثرت جدًّا من صداقة معاونىّ، وتكريسهم لعملهم، ولست أدعى أننى كنت سهل التعامل. لأن وظيفتى كانت سهل التعامل. فقد كانت للدفع والإيحاء. لا للمكافأة والإرضاء، وأغلب زملائى المباشرين غدوا أصدقاء العمر.

ص : جاءك رهط من زملائك فى جامعة هارفارد يحضونك على الاستقالة، وكان هذا فى مطالع خدمتك من حوالى ١٩٧٠ فيما أظن.

ك : فى مايو ١٩٧٠ فى أثناء أزمة كامبوديا.

ص : هل كنت على وشك الاستقالة فى أى وقت خلال ثمانى سنوات عملك ؟.

ك : نعم. فى مرتين. كنت فعلا معتزمًا على الاستقالة.

ص : لماذا لم تستقل إذن ؟.

ك : إذا استقلت فجزاؤك المنشتات لثلاثة أيام. ولكنك تفقد الفرصة فى تشكيل الوقائع على المدى الطويل. وعلى الشخصيات العامة أن تقرر متى تقدم استقالتها، وعلى أى أساس، مع التأكد من ألا يكون هدف الاستقالة مجرد الاعتداد بالنفس، وإرضاء الذات. أو محاولة بارعة لتأمين مستقبل الشخص.

ذكرى من دنيا الله الواسعة

تسعة أشهر على ظهر السفينة «مباحث»، تجوب بحار الشرق (الأحمر والعربى والهندى) تشارك فى أعمال البعثة البريطانية التى تحمل اسم «السير جون مورى»، تخليدًا لذكرى هذا الرائد الكبير من رواد علوم البحر. هذا والسفينة تحمل فى مكانه المعهود عليها الرائع بخضرته، وهلاله ونجومه وترفع شريطًا أحمر على الصارى إشارة إلى أنها تضيف بعثة بريطانية، والموانئ والمرافئ التى دخلناها كانت كلها فى ذلك الزمان البعيد (١٩٣٣ - ١٩٣٤) تدخل فى نطاق الأغنية المشهورة «احكمى يا بريطانيا من طرق الاستعمار اللولبى».

أسلوب العمارة الحديثة فيها لا يتغير فى مرفأ أو ميناء عن آخر: خليط من العمارة الفكتورية مع لمحة من الفن المحلى، والحياة الاجتماعية منها بريطانيا أو متأثرة بها.

أحاديثنا أغلبها بلغة الضيوف، وإن تعلموا غير قليل من كلامنا، والطعام إنجليزى قح، يطهوه طباخ مصلحة خفرا لسواحل (صاحبة السفينة)، إلا فى شهر رمضان إذ حرص الضباط والمهندسون المصريون ورجالهم على تموين السفينة بالخضر والفواكه والمكسرات الأفريقية، من سوق ممباسة الأهلى وذلك قبل حلول الشهر الفضيل.

طبيعى أن أحس بالملل فطبيعة الشباب كلفة بالتغيير، فلا تعجب أن

يكون طعامنا فى تلك الموانئ والمرافئ : عربيًا محليًا ، أو هنديًا ، أو زنجباريًا ، أو سرنديبيًا .

إلى أن عبرنا خط الاستواء إلى جزيرة زنجبار ، ومنها خضنا أطول عبور عرضى ، وهو الثانى للمحيط الهندى إلى كولومبو ، عاصمة جزيرة سيلان (سرى لنكا حالا) ، وكان على السفينة البخارية أن تتوقف يومًا أو يومين عند أرخبيل سيشيل ، لتموينها بحمل إضافى من الفحم . وصلنا بليل أمام بورفكتوريا العاصمة ، وفى الصباح الباكر اقتربنا إلى موقع الرسو بالمخطاف وأشرفت على سيشيل منفى سعد باشا وصحبه ، وطربت نفسى بشعور ابن ثورة ١٩ ، وبالجمال الاستوائى ، والمرتفعات الخضراء التى تلمس أطراف السحب الواطئة ، فيما يعرف بمناطق « الدولدرام » ، وبأسلوب فى العمارة مخالف لكل مما شهدناه طوال تجوالنا حول بحر الهند والبحر العربى ، حذرت أمر ذلك الأسلوب من الصور التى رأيتها من قبل لأسلوب البناء وتنظيم المدن بالمستعمرات الاستوائية الفرنسية ، وسكانها الفرنسيون المولودون فيها من أصل فرنسى غير مهجن ، ويعرفون « بالكريول » ، أسلوب يجمع بين الرقة والفانتازيا ، والزخرف والتوافق بين البيئة والجو الحار .

أول من قابلت من سكان سيشيل كان طبيب الميناء والحجر الصحى ، قدمت له السجل الطبى شهادة بسلامة ركاب السفينة صحيًا ، ودعانى لتناول طعام الإفطار معه بمستشفى المدينة ، ولزيارة أقسامه . وفيها انبهرت بجمال مريضاته « الكريول » ، وزميلاتهن السود والسمر بلون القهوة واللبن .

سحرتنى مدينة بور فكتوريا بجنتها الاستوائية ، وجاداتها الفسيحة

ونظافتها وأناقتها . وقفت أشاهد خروج الصبية الصغار من مدرستهم لفترة الظهر ، سمر وسود . سألت أحدهم عن اسمه وما يدرس فأجابني بالفرنسية ، ونطق اسمه زان (جان) لوران ، وحدثني عن مدرسته . سألته بأية لغة تتكلم ؟ أجاب « زوبال كيول » أتكلم الكريول) .

أنا : « لا أعرف لغة اسمها ذاك ، إنك يا ابني تتحدث بالفرنسية . أجاب « زوبال كيول » .

وعرفت أن مؤتمر فيينا الذى أنهى إمبراطورية نابليون ، وأعاد حكم البوربون ، قضى باستيلاء بريطانيا على جزر سيشيل ، من أملاك فرنسا ، وبإبقاء اللغة الفرنسية للأهلين ، وتبقى رسمية هى والإنجليزية مدى مائة عام (١٨١٥ - ١٩١٥) . وفهمت معنى غلمان سمر سود يتكلمون لغة لا يسمونها فرنسية ، وهى فرنسية مع ذلك ، وحديثنا مع أهل الجزيرة كان بها . وكانت لغة صاحب الفندق الذى تعشيت عنده فى مستوى لغة أساتذة السوربون ، سألته عن سفره إلى فرنسا وكيف يفسرون لغته ، غير المعتادة بين عامة الشعب فى باريس قال : حسبونى فرنسيًّا من كندا .

وتناولنا الغداء : رئيس البعثة الإنجليزى ، وقومندان « مباحث » الأسكتلندى ، وضابط البحرية الملكية البريطانية « الكوماندوز ايان فاركسون » وأنا ، على مائدة الحاكم العام البريطانى . وهناك رأيت لأول مرة الأناناس الطازج يتوسط المائدة ، فيما يشبه زهرة كبيرة ضمن باقة استوائية تعلوها زهرة المانوليا . نسيت شكل قصر الحاكم من خارجه وداخله ، والغالب أنه كان بريطانى النمط ، مثل الطعام فيما عدا فواكه المنطقة الحارة .

لماذا أبدى وأعيد من حياتى فى منتصف العمر . لأن جاذبية أورليان

الجديدة ، استقرت فى نفسى منذ رحلتى الأولى إلى الولايات المتحدة حين عبرت بلادها من الشاطئ الشرقى حتى الشاطئ الغربى . فمهما تميزت سان فرنسيسكو بجوها ، وسحرها وروعة طبيعتها وكباريها المعلقة عبر خلجانها ، وعجيبة حيها الصينى ، فإن كل ما رأيت فى البلاد التى زرتها هو أميريكا الحديثة فيما تصورناه ، وعرفناه من أسلوب حياتها وأنماط عماراتها ومن آدابها وصورها وأفلامها .

كان بودى أن أرى عاصمة الجنوب ، فى لويزيانا القديمة ، التى تحمل اسم الدوق فيليب دورليان الوصى على العرش بعد وفاة لويس الرابع عشر (١٧١٥) . انشأها على بعد ١٦٠ كيلو مترًا إلى الشمال الغربى من دلتا المسيسبى ، جان - بابست لوموان ، سيد بانفيل ، فيما بين آخر عام ١٧١٧ ومطالع ١٧١٨ ؛ بناء على تعليمات حكومته فى باريس ، وعلى رأسها تسمية المدينة الجديدة باسم الوصى على العرش . واختار سيد بانفيل كفرًا هنديًا قائمًا فوق ربوة تطل على منعطف شبه دائرى لنهر المسيسبى ، أعطى لشكل المدينة الأصلى صورة الهلال ، وتعرف لورليان الجديدة باسم « المدينة الهلال » ، خطط لها مهندسان ملكيان ، وقام بمنشآتها عدد هام من المهندسين الفرنسيين .

وبيعت ولاية اللويزيانا الفرنسية إلى الولايات المتحدة عام ١٨٠٣ تحت حكم القنصل الأول - بونابرت ، وتوماس جفرسون رئيس الولايات المتحدة الثالث (١٨٠١ - ١٨٠٩) .

كتب المصور الانطباعى الكبير « ادجار دوجا » ، إلى صديق فنان بباريس من مدينة أورليان الجديدة حيث قضى ردحًا من الزمن فى زيارة أقربائه (أكتوبر ١٨٧٢ - فبراير ١٨٧٣) ، وصور هناك لوحاته المشهورة

(سوق الأقطان) بأورليان الجديدة وهى التى رأيتها بمتحف مدينة « بو » بالجنوب الغربى لفرنسا أمام جبال البيرنيه ، وصورة لقريبته الضريرة استيل موسون دوجا (فى متحف اللوفر ، ومتحف أورليان الجديدة) قال :

(فرنسا الحلوة ما فتئ لها ربع قدم فى اللويزيانا - فيلات ذوات أعمدة ، بأساليب عدة . دهانها أبيض وسط رياض المانوليا والبرتقال والموز - زنوج فى ثياب رثة - أطفال بيض بين أذرع سود ، عربات تجرها بغال - مداخن السفن البخارية ترفع رأسها فى سماء آخر الشارع الكبير . ذلك بعض اللون المحلى ، وكل شىء جميل فى دنيا الناس - لو جاء « مانيه » إلى هنا لرأى أشياء حبيبة ، وحتى أكثر منى) .

وصلت بالطائرة من شيكاجو إلى « نواو رلينز » وتوقفنا دقائق فى أطلنطا وعصف الجو بأشد ما عرفت فى رحلات طيرانى منذ بدأتها (فى عام عبور لندبرج الأطلانطى وحده من نيويورك إلى باريس على طائرته الصغيرة سبيريت أوف سانت لويس ١٩٢٧) ، عصف فيما بين أطلانطا وأورليان الجديدة . وكانت الشمس قد غربت قبل وصولى ، ولكنى مطمئن إلى حجرة حجزت لى بفندق (بوريون - أورليان) بواسطة سيدة سمحاء أنيقة ، أميريكية من أصل بولندى ، صاحبة ومديرة مكتب سفريات ، بعد حديث ممتع أدركت منه نوعية المسافر . ركبت التاكسى مع بعض رفاق السفر ، نزلوا عن آخرهم بفنادق المدينة الحديثة : عمارات تنطح عمارات على النمط المعهود ، وبقيت وحدى بالتاكسى ، حتى غادرنا الأحياء الجديدة إلى ما يعرف « بالمربع القديم » « لوفيوكاريه » ، أى الحى الفرنسى الذى احتفظ بطابعه على ضفة المسيسبى . أمامى وأنا أكتب خريطة هذا المربع المقسم إلى مربعات تمثل بلوكات بيوت بين شوارع مستقيمة ،

تتعارض عموديًا . وهى الخريطة التى صحبتنى فى تجوالى بعد ظهر اليوم التالى لمشاهدة المبانى الأصيلة ، المبينة عليها بأرقام . شوارعها تحمل أسماء فرنسية (بوربون - تولوز - سان لويس ... إلخ) .

انتهيت من تجوالى إلى ميدان جاكسون (اندرو جاكسون) ، جنرال استرجع المدينة من الاحتلال البريطانى فى حرب ١٨١٢ ، ثم انتخب رئيسًا سابعًا للولايات المتحدة (١٨٢٩ - ١٨٣٧) . أمام كاتدرائية سان لويس . عبرت خط السكة الحديدية إلى ضفة المسيسبى . وقد وقع فى مقالاتى خطأ مطبعي واحد ، حيث كتب اسم هذا النهر « الموسيوسيبى » . تبسمت للخطأ مغتبطاً به . لأن اسمه أصلا عند الهنود الحمر (ميسى سيبى) ويعنى « الماء الكبير » وما بين (الموسيو والميس) ... فركة كعب .

لبثت وقتًا طويلا حتى قبيل الغروب أتأمل « الموسيو سيبى » وهو أعرض من نهرنا العظيم ضعفًا . وتذكرت متحسرًا النيل فى مدّه ، حين كانت عظمة فيضانه تجل عن الوصف ، وخاصة إذا وقفت على حافة الشاطئ واستمعت إلى هدير مياهه فى لون الطوب الأحمر .

وقررت أن أركب المسيسبى فى يومى التالى . على ظهر السفينة البخارية الكبيرة ذات الرفاص الخلفى الكبير واسمها « ناشيز » ، من رصيف شارع تولوز بميدان جاكسون ، وقضيت فوق سطح المياه المصفرة ثلاث ساعات أواجه الضفتين ، وأشاهد الكوبرى الهائل عبر النهر ، وأتذكر حياة الكاتب الكبير « مارك توين » الشاب ، يتدرب على مهنة الإرشاد العويص وسط مياهه ، وفوق قبعاته المتحركة ، فيما بين « سان لويس » و « نواورلينز » .

ولا أعود إلى نشأة موسيقى « الجاز » فالمدينة الساحرة تحفل بالبهجة

والهيصة، والمتع الحسية. لأن من يقضى نهاره متأملا عمائر القرون السابقة، لا يجد متسعًا من الوقت، ولا يتيقظ إحساسه لسماع تلك الموسيقى المزعجة.

ربما كان مرأى المدينة العتيقة شيئًا خارقًا، فلعلها المثال الوحيد فى تلك البلاد الشاسعة تشعر فيه بنبض التاريخ، إلا أن تذهب كما ذهبت وكتبت فيما سبق من فصول عن زيارتى لمدينة بليموث على بعد أميال من مدينة بوَسطن، للموضع الذى نزل به «الآباء الحجاج» على أرض العالم الجديد ذات يوم من عام ١٦٢٠. وقد بلغوا مهجرهم المجهول هرباً من ضيق الأفق العقائدى فى بلدهم.

«المربع القديم» فى المدينة القائمة على منعطف نهر المسيسبى، تدرك فيه معنى العتاقة، وأنت تتأمل جمال العمارة التى تجمع بين الجمال الفرنسى والبهو (الباسيو) الأندلسى، وكل تلك الطنف الحديدية المشغولة كالدانتلا تحوط الطوابق بطولها وعرضها واستدارتها.

وإذا كان البلد رطبًا، حارًا و«يا مطرة رخى رخى»، فلا مناص من أسقف اردوازية شبه مسطحة، ولكنها مخفية بحيث تتراءى لك تلك البيوت القديمة، وكأنها بيوتنا المصرية بأسطحها المنبسطة.

فى عالم مرشدى السفن

كان النيل عندنا ، أهل القاهرة يعرف « بالبحر » ، وفيها أذكر وردت فى أسماء جاداتنا « شارع البحر الأعظم » ، واسم نهر المسيسيبى عند أهل أميريكا الأصائل (الهنود الحمر) « الماء الكبير » ، وكان إحساسى ببحرى الحلو ، وقد عشت على شاطئه منذ صباى ، إلى اليوم ، ومعرفتى بجبروت فيضانه مصدر حزن دفين ، وأنا جالس على مقعد يطل على ضفة المسيسيبى ، أتأمل حركته واتساعه وأفكر بجبروته هو أيضًا ، إلى جانب بحرى الذى قيد بأغلاله ، وصار حبيسًا .

وذكرتنى مشاهدة المسيسيبى لأول مرة من مدينة أورليان الجديدة بالكاتب الأمريكى أول محرر لأدب بلاده ، من سلطان أدب انجلترا الأم ، فما أن عدت إلى مستقرى حتى أخذت فى تقليب صفحات بعض مؤلفاته ، أطالع ما يعن لى مما سبقت إلى قراءته فى صباى ووقفت عند كتاب له اتأمله وأغوص فى فصوله وعنوانه « المسيسيبى فى الأزمنة السابقة » .

لأن « صمويل كليمانس » المولود فى قرية فلوريدا بولاية « الميزورى » عام ١٨٣٥ انتقل مع والديه قبل بلوغه الرابعة إلى بلدة « هانيبال » على ضفة المسيسيبى اليمنى . نشرت الخريطة أمامى أبحث فيها عن موقع تلك البلدة حتى وجدتها على مبعدة نحو ثمانين ميلا إلى الشمال من مدينة سان لويس فإذا تابعنا النهر فى اتجاه (المصب) طالعتنا أسماء مصرية لبعض

البلاد. فها هى «كايرو» «وممفيس» من البلاد المطلة على النهر العظيم.

يجب أن نفهم الحيرة التى لاقاها المهاجرون، المستعمرون، فاتحو الطريق إلى أقصى غرب شبه القارة، فى تسمية بلدانهم الجديدة، تبدأ أكواخًا من الخشب. فقد يلجئون إلى اسم الكفر أو المحلة عند السكان الأصليين وهم الهنود الحمر. وذلك لم يكن ميسورًا دائمًا، وقد يضطرون إلى استعارة أسماء من بلاد العالم القديم. فعندهم باريس (بلدة صغيرة على مقربة من نهر الأوهايو) وبرمنجهام وكامبريدج، ودوفر، ودرهام، وهانوفر. وكان اسم نيويورك قبل الإنجليز (نيو امستردام)، فاستعار المستعمرون الجدد اسم مدينة يورك من إنجلترا.

إن أهم حقيقة فى حياة «صمويل كليمانس» الشخصى و «مارك توين» الكاتب، هى بلدة هانيبال بموقعها على المسيسيبى. «واسم القلم» هذا سيتضح فيما يلى، فهو مجرد نداء بحارة السفن النهرية القائمين على سبر أغوار المسيسيبى، تفاديًا من الجنوح بسبب تغير قبعاته. ومن بين نداءات فى مواضع انخفاض مياهه، وأوقاتها بسبب تغير قبعاته. ومن بين نداءات قياسى الأعماق «مارك» أن تنبه، خد بالك أو لاحظ، أو سجل «توين» وهى فى لغة الأميريكان تعنى زوجًا من الشىء وعلى سطح مراكب المسيسيبى تعنى «قامتين» (زوجًا من القامات).

بلدة هانيبال تجمع إلى خصائص المحلة الريفية، ميزة الاتصال الدائم بالعالم الخارج عن طريق النهر الملاحى الأكبر بالرفاصات البخارية الكبيرة، وغيرها تحمل تجارة شبه القارة من ولاية ويسكونسن فى الشمال وما خلفها حتى أورليان الجديدة إلى أقصى الجنوب ومنها إلى خليج المكسيك وتقف تلك السفن ببلدة هانيبال أيامًا أو ساعات.

وهانيبال على مقربة كما قلنا من سان لويس مفتاح الطرق إلى سانتافيه أو أوريجون أو كاليفورنيا .

بدأ صامويل كليمانس حياته العملية صبيًّا فى مطبعة ، وكانت هذه المهنة فاتحة هامة لأدباء أميريكا فيما بعد . فقد أسس مارك توين دار نشر أثمرت أم انتهت إلى بيوت نشر الأدباء (والترسكوت وأونوريه بلزاك) إلى التفليس .

وفى سن العشرين كان مارك توين قد تمرس بالأدب الإنجليزى الكلاسيكى ، وطالع التاريخ ، وعمل فى الصحف مخبرًا وكاتبًا يمزج الجد بالهزل ، والتنكيت بالتبكيت ، فيلقى بالنكتة التى تضحك على الرغم من وخذ قرصتها .

فى عام ١٨٥٧ بدأت « صبينته » على مرشدى سفن المسيسيبى وفى هذا يقول :

« فى مطالع حياتى كان طموحى وطموح أقرانى فى بلدة هانيبال على الشاطئ الغربى للمسيسيبى هو أن تكون « رجال النهر » فوق رفاصاته البخارية . نعم كانت لنا تشوقات عابرة من أنواع شتى . فما إن رابط سيرك فى ديارنا فترة ثم غادرنا ، حتى نشتاق جميعًا أن تصبح « بلياتشوات » . وعندما تمر بنا جوقات الأدباتية السود ، ونشهد تقاليعهم وصعلكتهم ، يتوق كلنا إلى حياة « العز فى النقل » فالصعلكة وإن رضى الله عنا فسوف يسمح لنا سبحانه وتعالى أن نتحول إلى قرصان بحار .

كلها هذه تطلعات سرعان ما يخبو ضياؤها ، إلا التطلع إلى شغلة مرشدى سفن المسيسيبى . وبلدة هانيبال تظل فى غفوة إلى أن يهل فى البعد عامود دخان غامق فيتصايح الزنجى الفحل ، منادى البلدة بصوته الراعد « باخرة قادمة » ، وإذا بالكتبة والمسببين ، والتجار وذوى المصالح يفيقون

من نعاس القيلولة ويخرجون من الشقوق، هم وعربات النقل، وجواسق البيع والشراء، الكل يهرع إلى رصيف البلدة، ويتطلع إلى عجيبة الأعاجيب، وكأنهم يرون الرفاص البخارى الكبير لأول مرة.

وما أشبه وصفه هذا انطباقًا على ما كان يحدث ببور سعيد فى أيامها الخوالى - كما عرفتها. كانت تصحو فى بهمة الليل، أو فى مطلع الفجر أو فى القيلولة ويتجه أهلها كافة كل حسب عمله ومهنته وآماله وتطلعاته إلى المرسى أمام مبنى شركة القنال الدولية « كذا » يقدمون أنفسهم على استعداد للخدمة فى البر، ويندفع البمبوطية بفلايكهم يزعقون من فوق سطح الماء لتصل كلماتهم باليونانية أو الإيطالية أو الإنجليزية إلى أسماع ركاب السفينة العابرة.

ليس من السهل اختيار منظر من المناظر التى عاشها صبى المرشدين، صمويل كليمانس وقد وقع اختيارى على هذا المنظر:

كنت لا شىء (صفرًا) فى جماعة المرشدين. فلم أبلغ حتى أوضع مركز فى إدارة عجلة الدومان [السكان] ... وعند الغروب قرع مستر بكسبى جرس السفينة ثلاث مرات إشارة إلى الرسو، وخرج القبطان من صالونه ونظر إلى مستر بكسبى متسائلا فقال له هذا:

« سنبقى هنا طوال الليلة ياقبطان » وأجاب الربان « طيب يا سيدى » وقد كان .. ورابطنا لقضاء الليل وإنما كان شيئًا لطيفًا حقًا أن يصنع المرشد ما شاء وراق له، دون أن يستأذن ربان السفينة.

« والمرشدون لا يتهيبون كثيرًا « أقاصير قاع النهر فى رحلة الصعود (الاتجاه شمالا ضد التيار)، لا يجبرهم أمر على التوقف، سوى الضباب. على حين أن السفر هبوطًا مع التيار شىء آخر.

فالسفينة لا حول لها ولا قوة فى تيار قوى يدفعها من الأدبار. ولهذا السبب لم يكن معتادًا أن تهبط السفن مع التيار فى الليل، عندما ينخفض مستوى الماء فتصبح الأقاصير عوائق خطيرة.

كان أمامنا أمل واحد، وضعيف، لبلوغ بلده «كايرو»، هذا إن استطعنا الوصول إلى «جزيرة البرنيطة» (هات أيلاند) قبل مقدم الليل. لأن عبور المنطقة والاستدارة حول رأس الجزيرة يمثل خطورة ومشاق عظيمة. أما بعد ذلك فالإقلاع ميسر فى ماء غير قصير وهذا يفسر خروج الساعات من الجيوب لمعرفة الوقت، والاهتمام بفك «جفر» السرعة. وكانت «جزيرة البرنيطة» موضوع الحديث السائر طوال اليوم العصيب ينفسح فيه الأمل آنًا ويضيق آنًا آخر حتى يوصد بابه.

لم يكن المرشدون الإضافيون ينتظمون فى «ورديات»، وكان كل واحد من مرشدينا الكثيرين يقوم بقيادة السفينة فى مكان من النهر عبره مؤخرًا فى رحلة الصعود شمالا، فهو بمعلوماته الحديثة أعرف بحال المنطقة، ولكن الآخرين يبقون فى «قمرة» المرشدين تحت الطلب.

وعند اقتراب المغرب تسلم مستر بكسبى عجلة «الدومان»، وفى الدقائق الثلاثين من تسلمه أمسك كل أفراد السفينة بساعاتهم فى قلق يخيم عليه السكون. وأخيرًا نادى أحدهم: شوفوا يا أولاد أهى جزيرة البرنيطة قدامكم ولا يمكن عبور مياهها «وهنا أقفلت ظروف ساعاتهم بطرقعة واحدة وأخذ الجميع يطلقون الزفرات (هذه ساعات أجدادنا نحن الشيوخ، عرفتها غلامًا).

اختفت الشمس تحت الأفق والسفينة تواصل السير، ويتبادل الجميع نظرات الاستغراب، شد مستر بكسبى حبل الجرس، ودق مرتين فانتشر

الرنين فى تحية الليل ، وبعد هنيهة دق مرة ثالثة ، وتبعه صوت « الناضور » للنوبتجى من الكوبرته العليا صائحًا : إلى قياسى العمق سنجق وقياسى العمق سقالة .

صاح رجال سير الفور ، ونقل كلامهم المبلغون من الكوبرته العليا : « سجل ثلاثًا « نقص الموقع إلى قامتين ونصف ، فإلى قامتين وربع « مارك توين إلا ربعًا » (سجل قائمتين إلا ربعًا) ، ومن هذا النداء اتخذ صمويل كليمانس اسم القلم .

وشد مستر بكسبى حبلى الجرس ، فاستجابت له خشخشه وصليل من غرفة الشرك (الآلات) فى أعماق السفينة . وهبطت السرعة ، وبدأ البخار يصفر من صنابير الضبط . وصوت قياسى العمق مستمر فى نداءاته لتسجيل النتائج أولا بأول ، وكأنه صوت القدر الداهم فى الليل الساجى .

كل المرشدين فى تلك اللحظات كانوا مركزى الأنباء ، وعيونهم محددة البصر وإذا تكلم الواحد منهم فبصوت خافت لم يك بينهم رجل هادئ مرتاح ، إلا مستر بكسبى . فقد ترك دولاب (الدومان) ليضع قدمه على شعاعة من شعاعاته .

وبينما كانت السفينة تتحرك تبعًا لعلامات غير مرئية (لى أنا) وكأننا فى بحر واسع كئيب . كان مستر بكسبى هو القائم وحده بتثبيت السفينة فى أوضاعها المختلفة ومن خلال اللفظ الكلامى غير المسموع تمامًا ، أمكن تعين جملة مترابطة من آن لآخر مثل : « آهى تمضى فوق الأقاصير فى آمان » .

وبعد السكوت المجلل يقول صوت مكتوم « إنها ورب السماء تهبط بفشها (بمؤخراتها) فى أمان » .

« وها هى ذى فى طريقها السوى تحقق العبور » وآخر همهمة كان عملا رائعًا .... والآن : توقفت الآلات تمامًا : فواصلت السفينة السير يدفع التيار ، وكان هذا الخضوع للتيار أسوأ السوء تنقبض له القلوب .

ثم اكتشفنا أسوأ ظلام مما يجللنا به الليل .. كان رأس جزيرة البرنيطة ، والسفينة يدفعها التيار إليها مباشرة دخلنا فى ظل الجزيرة الأكثر كثافة ، وبدأ الخطر داهمًا لدرجة أنى أشرفت على الاختناق وجلا ورهبة ، وبنفسى إحساس قوى يدفعنى إلى عمل شىء لإنقاذ السفينة .

ولكن المستر بكسبى ما برح واقفًا إلى عجلة « الدومان » صامتًا ، متحفزًا كالهر ، وجمع المرشدين واقفين خلفه كتفًا إلى كتف .

وصوت هامس يقول : « ستعوق السفينة فى العبور » . وأصوات القياسيين ترتفع معلنة « اقتراب القاع » ثمانية ونصف « ثمانية أقدام ... سبعة و ... » .

مستر بكسبى يتكلم فى صوان البوق الموصل لغرفة الشرك عن طريق ماسورة ويقول بصوت حام : ستاند باى . (خذ أهبتك توًا) ، فيرد المهندس من قاع السفينة (تمام ، تمام يا فندم) (سبعة ونص .. سبعة .. ستة .. و .... مسسنا القاع) وحرك مستر بكسبى أجراسًا كثيرة ، وصرخ فى صوان البوق « والآن أعط السفينة كل قدراتها ، أعطها حتى الثمالة » ثم التفت إلى شريكه المرشد « اخفس بها الأرض ، اخطفها ، اخطفها » والسفينة تصر صريرًا ، تضرس له الأسنان .

طحنت طريقها على شفا الكارثة . لحظة واحدة هنيهة هائلة .. وتمكنت من العبور . وكانت صيحة جماعة المرشدين خلف المستر بكسبى مما لم ترتفع يومًا إلى درجة تفكيك مغاصل السقف فوق « قمرتهم »

أو برطوزهم، كما يقول بحارتنا) لم نلق صعوبة بعد ذلك. وكان المستر بكسبى يطل تلك الليلة الليلاء، وانقضى زمان غير طويل بعد ذلك حتى توقف التحدث بما كان من رجال النهر.

وكان آخر ما سمعت من ملحوظات : تحية وإطراء من شخص يخاطب نفسه.

«وحق ظلام الموت، إنه لمرشد باهر».

توماس چفرسن

الرئيس الثالث للولايات المتحدة

جاء فى وصف مؤرخ أميريكى للرئيس القتيل چون فتزجرالد كنيدى أن كان فيه من قوة شكيمة تيودور روزفلت. ومن فرنكلين ديلانو روزفلت، قدرته على الوصول إلى قلوب الجماهير. ثم أضاف إلى ذلك اهتمام كنيدى بالفنون والآداب وأهلها، مع لطف المعاشرة الاجتماعية. وكان هذا سجية فيه، مثلما كانت لتوماس چفرسن. وقد تجىء هنا إشارة مستورة إلى الندرة فى هذه السجية لدى رؤساء الجمهورية الكبرى فى العالم الجديد.

وربما نسى القراء تيودور روزفلت، وهو الذى تولى الرياسة عام ١٩٠١ بعد مقتل الرئيس ماكنلى على يد فوضوى. وكان روزفلت من الحزب الجمهورى، ديموقراطى النزعة، مقبلا على الإصلاح، مؤمنا بأن الرئيس أقرب إلى قلب الجماهير من الكونجرس. وبرغم أنه من المحافظين، لا يلجأ إلى وسائل ثورية لتغيير النظام الاقتصادى، فإنه كان يعمد إلى تنظيفه من المساوئ التى اعتورته. ولهذا عزم على إثبات أن الحكومة أعلى يدًا من كل رجال الأعمال، مطالبًا بتحقيق العدالة لرجل الشارع بالحد من سلطان أولئك الرجال. وعقب انتهاء رياسته، قام برحلة حول العالم، زار فيها مصر، ووقف بأسوان يثنى على الاحتلال البريطانى، فى إبان أزمة الخديو عباس الثانى مع المعتمد البريطانى، بعد أن

سمح الأمير لنفسه بتوجيه النقد إلى نظام الجيش المصرى القائم عليه ضباط بريطانيون. وتولى أحمد شوقى، أمير الشعراء الرد على روزفلت بخريدته الضادية، أشاد فيها بأمجاد التاريخ المصرى، موجهًا الكلام إلى الزائر المعتدى:

أيها المنتحى بأسوان دارا   كالثريا يكاد أن ينقضا

وسواء عرف روزفلت بأمر تلك القصيدة، أم لم يعرف، فقد نزلت بردًا وسلامًا على قلوب أهل الكنانة. وكانت من أول ما عرفت، وأحببت، وحفظت من قصائد الشاعر المغلق.

أما قريبه فرنكلين روزفلت، فهو الذى قاد الشعب الأميريكى بتؤدة سياسية لينضم إلى الحلفاء فى محاربة عصابة المجرمين الذين هددوا البشرية جمعاء بمحاولة القضاء على الحريات، وقد وأدوها فى بلادهم، ومحوها فيما احتلوه من أصقاع فى أوربا وأفريقيا وآسيا.

يبقى الرئيس الثالث توماس جفرسون الذى ورد ذكره فى هذه الفصول. وأعترف خجلا بأننى - قبل زيارة الولايات المتحدة، لم أك أجهل هذا الاسم فحسب، بل كانت معرفتى بتاريخ تلك البلاد، أقل من القليل، فيما لا يزيد عن الإلمام ببعض سيرة چورچ واشنطن، وحرب الاستقلال، وبنقاط الرئيس وودرو ويلسون الأربعة عشرة، وأثرها فى تحرك مصر، عقب إعلان الهدنة فى الحرب العالمية الأولى، نحو المطالبة بالاستقلال التام. واقتصرت معرفتى على أعلام الأدب الأميريكى، وإطلاعى على ما أفادنى من المؤلفات الهامة فى تخصصى الطبى، ثم العلمى، وفى كلفى بفن الموسيقى وعلومها. وكل هذا لا يعنى أكثر من المعرفة على البعد للمنجزات الأميريكية فى العلوم والصناعات والزراعة

والاختراع، معرفة تقدير، يمكن تقييمها على علم بالنتائج، لا بمصادرها وأصولها، وقواعدها السياسية والاجتماعية. وهنا يفسر اتجاهى قبل السفر، وإبان الرحلة، إلى التعرف على الأصول الديمقراطية العظيمة، ومصادرها.

ويشاء حسن الطالع، وقد قفلت عائدًا إلى باريس، أن تقيم السفارة الأميريكية فى أوائل سنة ١٩٧٥ معرضًا «بالجران باليه» (السراى الكبرى للمعارض)، خصصه للتاريخ الأميريكى فيما بين سنتى ١٧٠٦ و ١٨٢٦، كمقدمة للاحتفالات الكبرى، المزمع إقامتها سنة ١٩٧٦ بمناسبة مضى مائتى عام على تحرير أميريكا. وقد ركزت السفارة على حياة رجلين من عظمائها: بنيامين فرنكلين المولود سنة ١٧٠٦ والرئيس الثالث توماس جفرسون المتوفى عام ١٨٢٦ .. وهو الشخصية المنيرة التى جذبتنى إليه وأنا أطالع التاريخ الأميريكى. وعنوان المعرض «بناة الاستقلال».

كانت البلاد فى مطالع تلك الحقبة مستعمرات صغيرة للبريطانيين، على صلة مستمرة بوطنهم الأصلى. وفى آخرها توحدت الولايات، وحققت التحرير التام من النير البريطانى. وكان الرجلان من أشد الناس إدراكًا وفهمًا للاحتياجات الأساسية لبلادهم: فرنكلين بعلمه، وحصافته، ولباقته، وفهمه العملى. وجفرسون بالثبات على مبادئه، يدافع عنها فى حماس متقد.

وجفرسن ابن ولاية ڤرچينيا، درس فى جامعة وليامسبرج، وكان طالبًا نابهًا، تواقًا إلى المعرفة، فاق شباب جيله ثقافة، مع حب الخلاء، والفروسية، والسباحة برقص فى الحانة، ويعزف على الكمان فى صالون حاكم ڤرچينيا. بدأ عشريناته محاميًا، وآثر اعتزال المحاماة، عقب

زواجه، واستقراره في بيته الريفي المسمى «پونتشيللو»، يفضل مشاركة معاصريه في حركات التذمر، والاحتجاج على الضرائب التي فرضتها الحكومة البريطانية على سكان مستعمراتها بالعالم الجديد - وهم بريطانيون - دون أن يكون لهؤلاء رأى، أو صوت ، في البرلمان البريطاني.

ذهب إلى المؤتمر القومي العام كمجاهد مثالي، بغير طموح شخصي. أهم ما يعنيه تصحح النظام الحكومي، وقد سبق ذلك عمله في تعديل قوانين ولاية ڤرچينيا، وعين حاكمًا لها سنة ١٧٧٩.

وإذ توفيت زوجته الشابة، وقد أخلفته بنتين، أحس برغبة في الاختلاء بأبعادية «پونتشيللو» الواسعة. وهيهات! فقد دمرها جنود الجنرال البريطاني المكلف بالقضاء على ثورة التحرير.

وبعد أشهر من السوداوية والحزن، رضى بالسفر إلى فرنسا سفيرًا لبلاده. فبهرته باريس في السنوات الأخيرة للملكية. وجاء في رسالة له قوله: «ولا أجد في الكلمات قدرة على التعبير عن إعجابي بفنون العمارة، والنحت، والتصوير، والموسيقى في هذه البلاد».

وعقب الاستقلال، وانتخاب قائد الثورة، چورج واشنطن رئيسًا للولايات المتحدة، عين چفرسون سكرتير دولة (= وزير الخارجية)، ثم اضطر للتخلي عن الوزارة، من جراء معارضة هاملتون سكرتير الخزانة (= وزير المالية). ولكنه عاد إلى العاصمة فيما بعد، نائبًا للرئيس، ثم رئيسًا للولايات المتحدة بعد انتهاء مدة الرئيس الثاني، چون آدمز.

أوصى چفرسون في أخريات حياته بأن تنقش على قبره هذه الشهادة: «هنا يثوى توماس چفرسون، مؤلف وثيقة الاستقلال، وصاحب المبدأ القاضي بالحرية الدينية في ولاية ڤرچينيا، ومنشىء جامعة ڤرچينيا».

والحق، أن ما أوصى به الرجل العظيم، هو أروع ما أدى لبلاده من أعمال باقية. «فوثيقة الاستقلال» كلف بها المؤتمر القومى العام لجنة من بنيامين فرنكلن، وچون آدامز، وتوماس چفرسون. وعهدت اللجنة إلى چفرسون بوضع مشروع الوثيقة، الذى وافقت عليه اللجنة والمؤتمر العام، بعد تعديلات خفيفة.

وصدر الدستور الأميريكى بعد إعلان الاستقلال بإحدى عشرة سنة. أبلغه إياه صديقه الحميم ماديسون، وكان چفرسون فى تلك الأثناء يمثل بلاده فى بلاط لويس السادس عشر. فرد على صديقه بالموافقة بصفة عامة، ولكنه أسف ألا يتضمن الدستور إعلانًا للحقوق التى تكفل الدفاع عن حريات الفرد. فقام ماديسون بوضع التعديلات العشرة الأولى التى أضيفت إلى متن الدستور. وهى المعروفة فى التاريخ الأميريكى باسم «إعلان الحقوق»، الوثيقة العزيزة لدى الأميريكيين، وموضوع اعتزازهم، ومباهاة الأمم بها. لم تكن شيئًا جديدًا، فهى فى الحق تعبير صادق عن النظرية السياسية لعصر التنوير، بما يوائم الحقيقة الأميريكية.

كتب چفرسون فى إحدى رسائله إلى صديقه ماديسون: «إعلان الحقوق يعبر عن حق الشعب فى الضمانات التى يحتمى. بها من تعسف أية حكومة تجىء... ولا حق لأية حكومة عادلة أن تعارض فى حق الشعب، أو أن تترك هذه الضمانات دون تعبير وتدوين».

ومن الأهمية بمكان – لأن ما يجىء يعتبر من المقومات الأساسية للدول فى العصر الحديث – الإشارة إلى نص جاء فى هذه التعديلات التى وصفها ماديسون بالاتفاق مع چفرسون: «ليس فى إمكان الكونجرس أن يصدر قانونًا يشير إلى تحديد دين بعينه». وبهذا النص بدأت الديموقراطية بمبدأ

فصل الدين عن الدولة. وليس فى هذا موضع تعجب من أبناء مهاجرين - «الآباء الحجاج» - نزحوا عن وطنهم لشعورهم بالحيف والجور من حكومة وطنهم الإنجليزى حددت مذهبًا بعينه ليكون دينًا رسميًا للدولة.

ولچفرسون فضل آخر، وهو انفتاح الولايات المتحدة على المساحات الشاسعة غربيّ المسيسبى. فمن أقواله: «إنِ الولايات الأميريكية فى الشرق ليست شيئًا مذكورًا بالنسبة لتلك الأراضى الواسعة». ولم يكن رأى چفرسون مجرد رجم بالغيب أو رغبة متفائلة. بل كان من مصادر قيام بيت «مونتشللو» فوق ربوة تطل على مزارعه الواسعة فى اتجاه الغرب. وقد ابتعث فيه ذلك الانفتاح على الغرب، الرغبة فى جمع ما يتاح له من خرائط، ومدونات رحالة، عن هذا الغرب. وچفرسون هو الذى أوصى بعثة علمية لاستكشافه، أسند رياستها إلى سكرتيره لويس بعد أن زوده بكل الوسائل التى تعده لهذه المهمة، وأشرك معه رحالة بحاثة اسمه كلارك. وتعرف البعثة باسم «لويس - كلارك»، عادت بعد سنتين محملة بالمجموعات الأنثروبولوجية، والنباتية، والحيوانية، ومدوناتهم عنها، وعن كل ما شاهدوه فى تجوالهم البعيد. وبذلك مهد الطريق للمستعمرين. وكانت القاعدة القائمة حينذاك أن من حق المستعمرين للغرب، عندما يبلغ تعدادهم فى صقع ما سبعين ألفًا، أن يضعوا دستورا لهم ينضمون بمقتضاه إلى الاتحاد، بكامل الحقوق، أسوة بالولايات المستقرة، على شريطة اشتمال دستورهم على مادة تطلق حرية العقيدة الدينية، وترفض أى نوع من استعباد السود، تجنبًا لامتداد نظام العبيد السائد فى ولايات الجنوب.

وتضاف إلى أعمال چفرسون البارزة، صفقة شراء الإقليم المعروف

باللويزيانا (نسبة إلى اسم ملوك فرنسا) . وهذا الإقليم الشاسع الأرجاء ، الذى يمتد حتى « الجبال الصخرية أى الروكى ماونتنز » ، مستعمرة إسبانية انتقلت إلى حكم فرنسا عام ١٨٠٠ . وقد بدأ الرئيس چفرسون محاولته عندما طلب من الوزير المفوض للولايات المتحدة لدى حكومة « الديركتوار » ، التفاوض مع حكومة القنصل الأول بونابرت لشراء اللويزيانا . ولم تطل المفاوضة لأن تاليران وزير الخارجية وافق على بيعها مقابل ١٢ مليون دولار . لم يكن چفرسون قد تلقى تفويضًا من الكونجرس ، بمقتضى حكم الدستور ، لإجراء الصفقة ، ولكن النجاح الذى تحقق لبلاده يسر موافقة الكونجرس دون معارضة ذات شأن .

وبهذا تضاعفت مساحة الولايات المتحدة بنحو ثلاثمائة ألف هكتار . وفى ٢٠ ديسمبر ١٨٠٢ تسلمت الولايات المتحدة من فرنسا مدينة « أورليان » ، ورفعت عليها أعلامها باسم « نو أورلينز » .

كتب چفرسون فى عام ١٨٢١ إلى چون آدمز صديق الثلاث عشرة من سنوات حياتهما ، بعد سنين من الجفاء بسبب الخلافات السياسية : « لا أحسب جهودنا ذهبت هباءً ، وسوف أموت دون أن أفقد الأمل بأن نور العلم والحرية سيضىء دائمًا » .

وهذا هو اليوم والعام (١٩٧٦) الذى تحيى فيه أميريكا ذكرى المائة الثانية لصدور وثيقة الاستقلال فقد دعى الرئيسان ، الثانى (آدمز) ، والثالث (چفرسون) لحضور الاحتفال فى واشنطن ، بمرور خمسين عامًا على إعلان وثيقة الاستقلال ، وكان ذلك فى ٤ يولية ١٨٢٦ . ولكن حالتهما الصحية ، وتقدمهما فى العمر لم تسمح لأيهما بالانتقال إلى واشنطن .

وفى مساء ٣ يولية أحس چفرسون بدنو أجله، وأخذ يسأل عما إذا كان التاريخ هو ٤ يولية. وشاء القدر الحانى أن يبقى الرجل العظيم حيًّا إلى ما بعد انتصاف الليل، ليلاقى ربه فى الساعات الأولى من يوم الاحتفال السعيد.

أختم الكتاب بهذا الفصل فى الرابع من يولية ١٩٧٥
القاهرة

حسين فوزى

فهـــــرست

رقم الإيداع		١٩٨٤ / ٥٤٨٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٠٥٢-٨	ISBN

١ / ٨٣ / ١٩١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذا الكتاب

عرف الدكتور حسين فوزى بهذه الإضافات الممتعة لأدب الرحلات ، فهو سندباد يطوف العالم ، قديمه وجديده ، وأساطيره وغرائبه وعجائبه ، وهو يقدم لنا هذا كله بأسلوب جذاب مدقق ممتع .

وهذا الكتاب إضافة جديدة يخصصها المؤلف للعالم الجديد أمام تمثال الحرية ، وخلال المجتمع الأمريكى الذى يجمع المتناقضات جميعًا ، ويسود العالم بفنه وفكره .. وسياسته أيضًا .

إن القارئ ليشعر وهو يقرأ هذه الرحلات .. أنه يراها بعينه ويسمعها بأذنه ، ويحسها بوجدانه ، ومن هنا كانت قيمة كتابات الرحالة السندباد حسين فوزى .

ص ٣٠٠